

الدراسات الإسلامية في الاستشراق الإسرائيلي

د . محمد جلاء إدريس *

مدخل:

تتباين تعريفات الباحثين حول تعريف مصطلح الاستشراق وماهيته، ولسنا هنا بصدد حصر هذه التعريفات، وإنما يمكن القول بأنها تتركز في اتجاهين اثنين: الأول: يرى أن في الاستشراق علماً^(١)، والثاني يرى فيه منهجاً فكرياً^(٢)، وقد جمع لنا إدوارد سعيد هذه المذاهب في رؤيته لدلالات الاستشراق والتي حددها فيما يلي^(٣):

* أستاذ مشارك بقسم مقارنة الأديان الجامعة الإسلامية العالمية

١ - انظر: برنارد لويس، "مسألة الاستشراق" في: الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ترجمة وإعداد هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص: ١٦١؛ رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص: ١١ .

٢ - انظر: ساسى سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط ١، ١٩٩١، ص: ١٩؛ محمد حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى، دار المنار، ط ٢، ١٩٨٩، ص: ١٤٤؛ عدنان محمد وزان، الاستشراق والمستشرقون؛ وجهة نظر، سلسلة دعوة الحق (٢٤)، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٤، ص: ١٥ .

٣ - إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة - السلطة - الإنشاء، تعريب كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١، ص: ٢٧ - ٣٩؛ ٢١٤-٢١٥ .

الدلالة الأولى وهي جامعية أكاديمية، فكل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه فهو مستشرق، وعمله هو استشرق، سواء أكان مختصاً بعلم الإنسان أم بعلم الاجتماع أم مؤرخاً أم فقيه لغة.

أما الدلالة الثانية فهي أكثر عمومية من الأولى من حيث هي أسلوب من الفكر القائم على تمييز وجودي (انتولوجي) ومعرفي (ابتمولوجي) بين الشرق والغرب.

والدلالة الثالثة هي أن الاستشرق أسلوب غربي يهدف إلى السيطرة على الشرق ويسط السيادة عليه.

كما أننا لا نعثر على "شهادة ميلاد" مصدقة موثقة لنشأة الحركة الاستشراقية، وقد أحصيت أحد عشر رأياً - تقريباً^(٤) - تتباين في مذهبها نحو تحديد بداية الاستشرق، بعضها يحدد تاريخاً بعينه، وبعضها يحدد حقبة أو عصرًا من العصور، والبعض يعتمد على حوادث أو غايات أراد الاستشرق الوصول إليها، فكانت بمثابة نقطة البدء لهذه الظاهرة.

٤ - حول هذه الآراء انظر:

* عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، المؤسسة العربية الحديثة، ط ٢، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٣.

* قاسم السامرائي، الاستشرق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٣، ص: ١٩.

* علي بن ابراهيم النملة، "كفه الاستشرق" في: دراسات استشرقية وحضارية، مركز الدراسات الاستشرقية والحضارية، كلية الدعوة، المدينة المنورة، العدد الأول، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص: ٣٣ وما بعدها.

* علي حسن الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (١٥) القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٧ - ٢٨.

* محمد أحمد دياب، أضواء على الاستشرق والمستشرقين، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٩، ص: ١٣ - ١٥.

* أحمد سمائلوفيتش، فلسفة الاستشرق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، ١٩٨٠، ص: ٢٧ وما بعدها.

إن أي محاولة لربط ظاهرة الاستشراق بتاريخ محدد لا تخلو من تكلف. قد نؤرخ لظهور المصطلح في الغرب مثلاً فنقول إن كلمة "مستشرق" قد ظهرت في اللغة الانجليزية حوالي عام ١٧٧٩، وإن كلمة "استشراق" قد ظهرت في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨^(٥)، ولكننا إذا أردنا التأريخ لظهور قضايا الاستشراق، سنجد أننا نستطيع رد كثير منها إلى البدايات الأولى لظهور الإسلام، وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

أما محاولة حصر أهداف اهتمام الغرب أو المستشرقين بالشرق الإسلامي العربي في منطقة واحدة، فهي محاولة غير موضوعية على الإطلاق، فما من شك أن رحلة الاستشراق التاريخية منذ ظهوره حتى الآن لم تكن في طريق واحد، ولا ذات أبعاد واحدة، فقد تعددت اتجاهاتها وتنوعت أهدافها ودوافعها وفقاً لمتطلبات كل دولة، ومقتضيات كل عصر وزمن، وكانت نتيجة هذه التعددية تلك الاختلافات البينة في النتائج الاستشراقي الضخم.

ولقد حدد مكسيم رودنسون^(٦) فعاليات البحث في مجال الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا من خلال ثلاثة محاور:

١ - الإكراهات الموضوعية التي تفرض نفسها على نوع من التوجيه البشري العام... وهذه الإكراهات ناتجة عن الضرورات الاجتماعية الخاصة بكل مجتمع، كما أنها ناتجة كذلك عن الأطر العقلية العامة لفعالية البحث العلمي في معظم المجتمعات الأوروبية، وهي أيضاً ناتجة عن المؤسسات التي تم إنشاؤها في كل مجتمع لكي تكون إطاراً يحتوى هذه الفعالية.

٥ - مكسيم رودنسون، "وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله" في:

الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، المرجع السابق، ص: ٨٨.

٦ - مكسيم رودنسون، المرجع السابق، ص: ٤٣ وما بعدها.

٢ - الأيديولوجيا المنبثة ضمناً أو الاتجاهات المهيمنة للعقلية الدارسة أو المراقبة، وهناك تطور عام ومشترك - في الخطوط الكبرى - بالنسبة لأوروبا كلها في هذا المجال.

٣ - الأوضاع المتغيرة للمجتمع الدارس بالقياس إلى المجتمعات المدروسة، وهنا أيضاً نجد نوعاً من التطور المتوازي أو المتشابه بالنسبة لكل أوروبا.

ويمكن أن نقرر باطمئنان: أن دوافع الاستشراق وأهدافه هي من المتغيرات التي ترتبط بظروف المستشرق المختلفة، كما يمكن لنا أن نشير إلى أبرز وأهم الأهداف التي ميزت الرحلة الاستشراقية عبر ما فيها، والتي تميز أيضاً حاضرها، علماً بأنه قد يجتمع أكثر من دافع وهدف وراء نشاط استشراقي واحد، في زمن واحد، وفي بلد واحد. فقد تأتى هذه الدوافع مجتمعة أو متفرقة، كما أن درجة قوتها متفاوتة، فبعضها قد يكون هدفاً مهيماً، والبعض الآخر قد يكون هدفاً ضمناً.

وقد أجمع المؤرخون للحركة الاستشراقية على بروز الأهداف الدينية - المسيحية - في المقام الأول من بين أهداف هذه الحركة، وهذا ما أكدته رودى بارت^(٧) وليوبولد فايس^(٨) ومونتجومرى وات^(٩) وبرنارد لويس^(١٠) وغيرهم.

٧ - رودى بارت، المرجع السابق: ص: ٢٣.

٨ - أنور الجندي، الإسلام والثقافة العربية، ص: ٨٦، نقلاً عن: عبد الفتاح أحمد أبو زائدة، التبشير الصليبي والغزو الفكري، كتاب الجهاد (١٠) مالطا، ١٩٨٨، ص: ٨٤.

٩ - مونتجومرى دات، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٨٣.

١٠ - برنارد لويس، الإسلام في التاريخ، ترجمه من الإنجليزية (إلى العبرية): شلومو جوينين زمورا، تل أبيب، ١٩٨٤، ص: ١٧ - ١٨.

ثم تأتي الأهداف الاقتصادية - الاستعمارية في الأهمية تالية للأهداف الدينية، كما تأتي تالية لها زمنياً^(١١).

ومما لا شك فيه أن المظهر العلمي للاستشراق قد صاحب هذه الحركة منذ بروزها على الساحة، وكان المقصد العلمي للمستشرقين واضحاً وبارزاً في كثير من أعمالهم. و"علمية الدراسات الاستشرافية أو على الأقل معظمها، لا تعني أن الدافع وراء القيام بها دافع علمي، فلكي تؤتي هذه الدراسات أكلها لابد أن تكون علمية، وإلا فهي عديمة الفائدة، وقابلة للنقص والزوال."^(١٢)

ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إشارة عابرة إلى مناهج المستشرقين في دراساتهم تجاه الشرق العربي الإسلامي، وأبرز هذه المناهج ما يلي:

١ - **المنهج التاريخي**، وهو عبارة عن ترتيب وقائع تاريخية أو اجتماعية وتبويبها وترتيبها ثم الإخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية ذاتها، والهدف من هذا المنهج هو جمع أكبر قدر من المعلومات والمعارف المتعلقة بموضوع الدراسة ويتلخص دور الباحث هنا في إرجاع الظواهر الفكرية وردها إلى أصولها الأولى.

ونظراً لأن المستشرقين أنفسهم كانوا وسيلة جمع المعلومات، ونظراً لخضوع غالبيتهم لأغراض محددة تتعلق بالدوافع الاستشرافية التي تحدثنا

١١ - انظر: مصطفى نصر المسلاتي، الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، دار اقرأ، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٠، ص: ٢٦٤؛ أحمد سمائلوفيتش، المرجع السابق، ص: ٥٠؛ محمد حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص: ٥٧.

١٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، المدنية الإسلامية وأثرها على الحضارة الأوروبية، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص: ٢٨، نقلاً عن أحمد سمائلوفيتش، المرجع السابق، ص: ٥٢؛ مصطفى نصر المسلاتي، المرجع السابق، ص: ٣٩، رودي بارت، المرجع السابق، ص: ١٣.

عنها، فإن تطبيق مثل هذا المنهج لا يحقق الموضوعية من ناحية. ومن ناحية أخرى، قد يصلح مثل هذا المنهج التاريخي في دراسة المسيحية في أوروبا حيث نشأت في بيئة دينية حفلت بالعوامل المؤثرة من الخارج على النص الديني المسيحي ذاته، ومن ثم بإمكان الباحث أن يرد مكونات المسيحية إلى عناصرها الأولى، ولكن هذا المنهج لا يحقق الموضوعية في دراسة الظواهر الفكرية الإسلامية، إذ إنها موضوعات فكرية مستقلة وليست مادية تاريخية، ولذلك تكون النتائج المستخلصة من تطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية خاطئة ومضللة.

وإذا أضفنا إلى ذلك قصور المفهوم الغربي الاستشراقي تجاه حقيقة الوحي والنبوة، والعلاقة التي تربط بينهما، أدركنا أن تطبيق مثل هذا المنهج وغيره من المقاييس والمناهج لا بد وأن ينتهي حتماً إلى نتائج خاطئة.^(١٣)

٢ - منهج التأثير والتأثر، ومن شأن هذا المنهج أن يرد الظواهر إلى العوامل الخارجية التي أثرت في قيامها، ومن ثم استخدم المستشرقون هذا المنهج في دراساتهم للوحي الإلهي والفقه الإسلامي والسنة النبوية الشريفة والفلسفة الإسلامية، وحاولوا رد كل موضوع إلى تأثيرات سابقة مما يعنى عدم أصالة الإسلام برمته، ونجد نماذج لذلك في كتاب "جب" المسمى بـ "المذهب الحمدي"^(١٤).

١٣ - انظر: حسن حنفي، دراسات إسلامية، دار التنوير، ط ٢، ١٩٨٢، ص: ٢٢٧؛ ساسي

سالم الحاج، المرجع السابق، ص: ٩.

١٤ - محمد كامل عياد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج: ٤ - م: ٤٤ / أكتوبر ١٩٦٩،

ص: ٧٩٤ نقلاً عن: التهامي نقرة، "القرآن والمستشرقون" في: مناهج المستشرقين في

الدراسات العربية والإسلامية، ج: ١، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس،

١٩٨٥، ص: ٢٧ - ٢٨.

٣ - **منهج المطابقة والمقابلة**، وهو ما يسمى أحياناً بالمنهج الفيلولوجي، ويعتمد على المقارنة والمطابقة بين النصوص، وتحليل النصوص إلى عناصرها الأولى وإرجاعها إلى أخرى سابقة لها. ويكمن الخطأ في هذا المنهج من جراء فرضية علمية رسخت في ذهن المستشرقين طبقاً لأحكام مسبقة مفادها أن هذه النصوص القرآنية التي يدرسونها ليست إلا صورة لما ورد هنا وهناك قبل بعثة النبي ﷺ، فكلما تطابقت ملامح نص قرآني مع نص سابق، سارعوا برد ذلك إلى ثقافة الرسول التاريخية وإلى اطلاعه على ما جاء في الكتب السابقة، أما حين يوجد اختلاف، فلا يردون ذلك لما حل بنصوصهم من تغيير وتبديل وتحريف، وإنما يلصقون تهمة التحريف والتبديل بالإسلام ذاته، ومن أبرز المستخدمين لهذا المنهج في دراسته للنص القرآني المستشرق (بلاشير) في كتابه "معضلة محمد" (١٥).

٤ - **المنهج الإسقاطي**، ويتجه من خلاله بعض المستشرقين إلى دراسة الظواهر الإسلامية وفي أذهانهم صورة معينة لأفكار معينة لا توجد من الناحية الفعلية، لكنهم يسعون لإيجادها في أذهانهم ويلتمسون لها الحلول والفروض مهما كانت منتفية، وإذا وجدت الظاهرة الفكرية بالفعل ولكن لا محل لها من تصوراتهم، فإنهم يحاولون نفيها مهما كانت صحة وجودها. ومن أبرز تطبيقات هذا المنهج ما ذهب إليه المستشرق ويلز الذي تخيل النبي ﷺ مخرجاً دفعته تطلعاته وطموحاته في سن الكهولة إلى تأسيس دين ليعد في زمرة القديسين، فألف مجموعة من عقائد خرافية وأداب سطحية وقام بنشرها في قومه، فاتبعها رجال منهم (١٦).

١٥ - R.Blachere, Le Prophète du Mohomet, Paris, 1952, p. 60.

نقلاً عن التهامي نقرة، المرجع السابق، ص: ٣١.

١٦ التهامي نقرة، المرجع السابق، ص: ٣١ - ولزيد من النماذج انظر كذلك ص: ٥٢ - ٥٣.

٥ - **المنهج التحليلي**، ويعتمد هذا المنهج إلى تحليل وتفكيك الظاهرة الفكرية موضوع الدراسة إلى مجموعة من المكونات والعناصر، يتم التأليف بينها بصورة غير متجانسة. فالمنهج التحليلي في دراسته للظاهرة يردّها إلى عناصرها الأولية كالظروف الدينية أو الاجتماعية أو السياسية. وخطورة تطبيق مثل هذا المنهج تكمن في حتمية تأثر المستشرق ببيئته وثقافته ودينه وحضارته، ومن ثم لا يمكن أن يصل إلى نتائج سليمة فيما يتعلق بدراسة الظواهر الإسلامية. إن الأخذ بهذا المنهج قد أدى إلى الحكم على الحضارة الإسلامية بالجدب وعلى الدين بالجمود، وعلى الوحي بالاضطراب وعلى التوحيد بالتجريد وعلى الشعوب بالتخلف.^(١٧)

وهناك مناهج أخرى كمنهج الشك الديكارتي ومنهج البناء والهدم، وقد انتقد المستشرقون أنفسهم كل هذه المناهج لعدم دقتها وموضوعيتها في دراسة الإسلام. فاعترض - مثلاً - المستشرق السويدي تور أندريه صاحب كتاب "محمد: حياته وعقيدته" على المنهج التحليلي^(١٨)، كما يهاجم الفرنسي كلود كاهين في كتاب "مقدمة لتاريخ العالم الإسلامي القروسطي" مناهج المستشرقين بوجه عام^(١٩)، وأشار مكسيم رودنسون في محاضرة له ألقاها أمام مؤتمر المستشرقين الذي عقد في لايدن عام ١٩٧٦ بعنوان "الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا" إلى نواقص الاستشراق وسوآته المنهجية^(٢٠)، وهكذا وجدنا المستشرق يوهان فوك في مقالة له عن "أصالة النبي العربي"

١٧ - حسن حنفي، التراث والتجديد، دار التنوير، ط ١، ١٩٨١، ص: ٧٥.

١٨ - محمد كامل عياد، المرجع السابق، ص: ٧٩٧، نقلاً عن التهامي نقرة، المرجع السابق، ص: ٣٦.

١٩ - Introduction a l' histoire du monde musulman medieuval, v11- xv siecle
A driven Maisonneuve, Paris, 1983

نقلاً عن: الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، المرجع السابق، ص: ٣١.

٢٠ - الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، المرجع السابق، ص: ٤٩ - ٧٣.

ينتقد طريقة العمل الاستشراقي في دراسة القرآن.^(٢١)

الدور اليهودي-الصهيوني في الحركة الاستشراقية الغربية

لم يغب اليهود عن الأحداث العالمية وإنما كان لهم دور واضح وجلّى في كثير من القضايا ومن بينها تلك الحركة الاستشراقية التي لعب اليهود فيها دوراً بارزاً لتتلقفها الصهيونية في مرحلة زمنية معينة، ولتستغلها كما استغلتها الحركات الاستعمارية والمصالح الدولية المختلفة.

ولعل إغفال الباحثين الحديث عن هذا الدور اليهودي يرجع إلى أن اليهود قد ولجوا إلى أعماق الاستشراق وساهموا في إرساء دعائمه بهويتهم الأوربية لا اليهودية.

وفي رأينا أن اليهود قد خاضوا غمار هذه الحركة لتحقيق أهداف محددة قد تلتقى مع الأهداف الاستشراقية الأخرى التي أشرنا إليها وقد تنفرد عنها. والهدف الأول من وراء الاستشراق اليهودي هو هدف ديني بحث، يتمثل في محاولة إضعاف الإسلام وتشويهه والتشكيك في قيمه عن طريق إثبات فضل اليهودية عليه والزعم بأن اليهودية هي مصدر الإسلام الأول. وقد استطاع اليهود الدخول إلى حلبة الاستشراق وبخاصة في أعقاب تحرير يهود أوروبا الوسطى والغربية ثم دخولهم للجامعات، ووجدت الحركة الاستشراقية فيهم ما لم تجده في سائر المستشرقين، إذ هم أكثر فهماً للتراث الإسلامي والعربي من غيرهم من الأوربيين، وذلك لتقارب اللغة العربية مع لغة ديانتهن العبرية^(٢٢)، فكان من الطبيعي أن يتفهم اليهودي الظواهر اللغوية العربية -

Fuehl, J., Die Originalilact des Arolischen - Propheten, Z. D. M. G. B. ٢٨ 90, 1930, p. 515

نقلًا عن: عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط ١٩٩١، ص: ٢٤.

٢٢ .. برنارد لوليس، في: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، المرجع السابق، ص: ١٢٧.

مثلاً - أكثر من الأوروبي، بل ويمكننا القول بأن الآراء اليهودية قد سيطرت على سائر الآراء وكانت لها السيادة، وكفيينا النظر إلى آراء المستشرقين الأوروبيين حول القرآن الكريم وشخص النبي ﷺ لنجدها نفس المزايم التي ردها اليهود في عصر النبي وسجلها لنا القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً.

أما الأسباب السياسية التي دفعت اليهود إلى ركوب موجة الاستشراق فهي عاداتهم الدائمة في استثمار الحركات الاستعمارية لتحقيق مصالح اقتصادية من ناحية وظهور الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر وتسخير البحوث والدراسات الاستشراقية لخدمتها من ناحية أخرى وتجدر الإشارة إلى أن خطورة الدور اليهودي في الاستشراق تكمن في أنهم هم الذين أمدوا الحركة الاستشراقية والرأي العام في الغرب بعناصر الصورة المشوهة للإسلام، وبآرائهم المغرضة عن الأدب العربي. لقد دخل الدور اليهودي الاستشراقي مرحلة جديدة من النشاط والفعالية مع بروز الحركة الصهيونية في القرن الماضي، إذ كانت فلسطين موضع اهتمام خاص من قبل المستشرقين الأوروبيين بوجه عام لارتباطها بالكتاب المقدس، ومن ثم حظيت بدراسات مختلفة حول تاريخها وجغرافيتها وبيولوجيتها، وكانت هذه الدراسات عوناً كبيراً للحركة الصهيونية، حيث وفرت لها كل المعلومات اللازمة لتسهيل مهمة الاستيطان اليهودي في فلسطين.^(٢٣)

٢٣ - حول العلاقة بين الحركة الاستشراقية والحركة الصهيونية ونماذج من تلك العلاقة، انظر: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية: جنورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبدالله عبد العزيز، عالم المعرفة (٩٦)، الكويت، ديسمبر ١٩٨٥، ص: ٣٠. حسن فاظلا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية، القاهرة، ١٩٧١، ص: ٤٦. أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى: دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، سلسلة كتب فلسطينية / ١٣، مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨، ص: ٤١ - ٤٢.

ومن أبرز المستشرقين اليهود الذين أدلوا بدلوهم في الدراسات الإسلامية نجد جولد زيهير وإبراهام جايغر وبرنارد لويس وسولومون مونك وريتشارد جوتيهك وجوزيف هورفيتش ودافيد بانت وبول كراوس.

كل هؤلاء وغيرهم من المستشرقين اليهود، الذين حملوا جنسيات دول غربية متعددة، قد تنوعت موضوعاتهم واهتماماتهم بين العمل الاستشراقي التقليدي وبين الاتجاه السياسي الذي أخذ على عاتقه دعم الصهيونية والاستيطان اليهودي في فلسطين.

الاستشراق الإسرائيلي

هناك مبررات تدفع إسرائيل للاهتمام بدراسة العرب والمسلمين، تضيف "دفعة خاصة" للنشاط الاستشراقي فيها، فإسرائيل تقع في تشكيل إقليمي عربي - وإن كانت تنتمي إلى الغرب قلباً وقالباً، وتعيش حالة من الصراع مع الدول العربية المجاورة الأمر الذي يستلزم منها أن تتعرف على مكامن القوة والضعف في الجانب العربي لوضع استراتيجيتها في كيفية إدارة الصراع، علاوة على إلحاح الاعتبارات الميدانية كالمواجهات والحرب النفسية والمعارك العسكرية، والحيثيات المتعلقة بالواقع السكاني في فلسطين. هناك جانب آخر يتمثل في رغبة إسرائيل في صياغة خطاب صهيوني سلمى موجه إلى العرب، وخطاب آخر لحملهم على الأخذ بالخيارات التي تضعها الصهيونية وإسرائيل، وهى صياغة ترتبط بالإدراك الإسرائيلي لرد الفعل العربي إزاء المواقف الإسرائيلية. كما أن هناك خصوصية تتمتع بها إسرائيل وتتمثل في تلك التداخلات التراثية والتاريخية بين الحضارة العربية والنتاجات الثقافية لليهود البلدان العربية في النسيج الثقافي العربي والإسلامي بوجه عام.^(٢٤)

٢٤ - نشر إبراهيم عبد الكريم دراسة قيمة حول الاستشراق الاسرائيلي نستقى منها كثيراً من المعلومات في هذا المجال وعنوانها: الاستشراق وأبحاث الصراع في إسرائيل، دار الجليل للنشر، عمان، ط ١ - ١٩٩٣.

ومظاهر الاهتمام الإسرائيلي بالشرق العربي والإسلامي متعددة، تنعكس في ذلك الدعم الذي تلقاه العملية البحثية بدءاً من الجانب المادي، ومروراً بالدفع العلمي والإداري، وانتهاءً بالجانب المعنوي وذلك عن طريق تمكين الباحثين من الاطلاع على كل ما يريدون من وثائق، وتوفير فرص العمل للباحثين في هذا المجال، وكذلك العمل على تطوير إمكانيات وطاقات المستشرقين عن طريق تقوية الاتصال بالخارج من خلال حضور المؤتمرات الاستشراقية وغيرها مما يساهم في الاحتكاك الاستشراقي الإسرائيلي - العالمي.

ومن ناحية أخرى ترى إسرائيل في مستشرقها حلقة هامة من حلقات جهاز الفكر فيها، ذلك الجهاز الذي يساهم في استكمال المشروع الصهيوني، كما لجأت المؤسسات الحاكمة إلى تكليف بعض المستشرقين بتأدية مهام مباشرة في مجال التعامل مع القضايا العربية، واختير بعضهم لشغل مناصب استشارية هامة، فقد شغل كل من يهوشفاط هركابي وشلومو جازيت منصب رئيس الاستخبارات العسكرية، وكان شلومو أفنييري مديراً عاماً لوزارة الخارجية، ومناحيم ميلسون رئيساً للإدارة المدنية في الضفة الغربية، كما يلاحظ تحول عدد كبير من الضباط الإسرائيليين بعد انتهاء عملهم في الجيش إلى العمل في الجامعات والمؤسسات البحثية الإسرائيلية.

وتستغل المؤسسات الإسرائيلية الحاكمة جهود هؤلاء الخبراء والمستشرقين في إعداد التقارير الدورية والدراسات الخاصة بشأن القضايا المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي، كما تقوم بتوجيه تلك الجهود بما يتفق والأهداف السياسية والإستراتيجية الإسرائيلية.

ويمكن أن نميز بين المستشرقين الإسرائيليين مجموعة تنتمي إلى اليهود الشرقيين الذين هاجروا من البلاد العربية، وأخرى من بين هؤلاء الذين عاشوا

ضمن التجمعات العربية في فلسطين أيام الانتداب، ومجموعة ثالثة تضم أولئك الذين درسوا الثقافة الإسلامية من الكتب وفي الجامعات الإسرائيلية وهي "أخطر هذه الفئات" كما يصفها الإسرائيلي إهارون جيفع^(٢٥).

وتتعدد المؤسسات الاستشرافية العاملة في مجالات الأبحاث الاستشرافية وأبرزها: **الجامعة العبرية في القدس** (أنشئت عام ١٨٨٢م) وتضم العديد من المراكز البحثية الاستشرافية مثل مؤسسة الأبحاث الشرقية ومعهد بن تسفى للدراسات اليهودية ومعهد ترومان لدراسات الوفاق والسلام ومعهد مارتن بوبر للتقارب اليهودي - العربي، ومؤسسة أبحاث الشرق الأوسط.

كما نجد أيضاً **جامعة تل أبيب** (تأسست عام ١٩٥٦م) وتضم مؤسسات عديدة تعنى بالشئون العربية والإسرائيلية، ومن أهمها: معهد "شيلواح" للدراسات الشرق أوسطية والأفريقية، ومركز "يافيه" للدراسات الإستراتيجية.

أما **جامعة حيفا** (افتتحت رسمياً عام ١٩٦٤م) فتضم معاهد عديدة ذات طابع استشرافي مثل: معهد الدراسات الشرق أوسطية، ومعهد أبحاث الجولان - كتسرين - وتضم **جامعة بار - إيلان** مراكز ومعاهد ذات طابع استشرافي كذلك، كما تتبع **جامعة بن جوريون** مؤسسات استشرافية متعددة.

وأبرز المحاور التي تقوم عليها الدراسات الاستشرافية الإسرائيلية: اللغة العربية وأدائها، والدراسات التاريخية العربية، والدراسات الإسلامية، والتراث العربي الإسلامي. والدارس لكثير من هذه النماذج يلاحظ بوضوح تأثير النزاع العربي الإسرائيلي على مجريات هذه الدراسات الاستشرافية وهو الأمر الذي سنشير إليه بشئ من التفصيل فيما بعد.

٢٥ - يديعوت أحررونوت ١٤/٢/١٩٧٥، نقلاً عن إبراهيم عبد الكريم، المرجع السابق، ص:

الاستشراق الإسرائيلي: رؤية تحليلية

كى نقف على ملامح الكتابات الاستشراقية الإسرائيلية (العبرية)، سنعمد إلى ترجمة بعض الآراء الواردة فيها، كما وردت تماماً عند أصحابها، ثم مناقشتها والرد عليها. سنقف عند كل نص لنسأل عما يقصده، والمفاهيم العامة والمبادئ التي يستخدمها، وكيف يحاول التوصل إلى تحقيق هدفه، وما مدى ارتباط كل ذلك بالمناهج العلمية، وهل ثمة أخطاء فيما يعرضه النص. وقد أثرت أن أصنف هذه النصوص تحت عناوين تحدد ملامحها في الكتابات العبرية على النحو التالي:

أولاً : الأصالة والتكرار

هناك سؤال يطرح نفسه قبل الخوض في تحليل النصوص الاستشراقية العبرية وهو: ما مدى الأصالة في مضامين هذه الكتابات؟ هل هي حقاً تصنيف جديداً إلى مجالاتها التي تتناولها أم أنها تعيد ما سبق للمستشرقين أن ردوه؟

ولا نبالغ - بعد تحليلنا للعديد من هذه النصوص - إذا قلنا إن دور الاستشراق اليهودي العبري إنما هو بمثابة استمرارية للدور الاستشراقي بوجه عام، والمتمثل في تلك الاتجاهات "العدوانية" إزاء الإسلام: عقيدة وتاريخاً. ومن هذا المنطلق وجدنا كثيراً من الكتابات العبرية يردد أطروحات الاستشراق الكلاسيكي ومقولاته بشأن الإسلام، ونسوق فيما يلي نماذج منها:

ففى إطار المزايم الاستشراقية المألوفة حول استلهاام النبي محمد ﷺ لدينه الجديد - الإسلام - من النصارى واليهود نجد العبارات التالية:

"يمكن القول بأنه من المؤكد أنه كانت في شبه الجزيرة العربية يهودية

مبدعة عشية ظهور الإسلام - وينبغي أن نسلم بأنها قد أثرت على العالم الروحاني لمحمد" (٢٦).

"ويبدو أيضاً أن قريب زوج محمد - خديجة - كان معلّمه في هذا الشأن وأنه أفهمه سر الباحثين عن الإيمان بالله واحد". (٢٧)

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ذهب المستشرقة الإسرائيلية حافا لزروس يافا إلى أن هناك تأثيرات أخرى على دين محمد - ﷺ - من أديان الجزيرة العربية المختلفة، ناهيك عن التأثيرات الوثنية. (٢٨)

أما المستشرق الإسرائيلي شالوم زاوى فيقول:

"يقول معلّمنا أ. كاتش كان هناك حاخامات مثقفون أثروا على محمد الذي تهود تقريباً". (٢٩)

كما يزعم أن معلومات محمد القرآنية لا تستند إلى وثائق أو شهادات مادية لما حدث منذ آلاف السنين، وإنما على أقوال اليهود والنصارى ووثائقهم الموجودة في معابدهم بالحجاز واليمن والحبشة. (٣٠)

ويستشهد زاوى في هذا المقام بأقوال المستشرق اليهودي جولدزيهر حول صعوبة فهم الإسلام دون القرآن، والقرآن وحده لا يكفي، ومن ثم ينبغي أن نقدر حجم ما أخذه الإسلام من اليهودية. (٣١)

٢٦ - حافا لزروس يافا، الإسلام: خطوط عريضة (باللغة العبرية) وزارة الدفاع الإسرائيلية، تل أبيب، ١٩٨٠، ص: ١٣.

٢٧ - المرجع السابق، ص: ١٤. ٢٨ - المرجع السابق، ص ١١ - ١٤.

٢٩ - شالوم زاوى، مصادر يهودية في القرآن (باللغة العبرية)، القدس، ١٩٣٨، ص: ١٣.

٣٠ - المصدر السابق، ص: ٣١. ٣١ - المصدر السابق.

وإذا كان المستشرقون الإسرائيليون قد أشاروا بأنفسهم - على نحو ما فعل زاوى - إلى أن السابقين من المستشرقين اليهود مثل أبراهام كاتش وجولدزيهر قد ردوا هذه الآراء، فإن هؤلاء وهؤلاء أيضاً لم يأتوا بجديد. فهذه المزاعم ردها أسلافهم من يهود المدينة منذ أربعة عشر قرناً وفندها القرآن.

قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾ النحل / ١٠٣ .

وقال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ الفرقان / ٥

فما ذهب إليه شالوم زاوى وأخته في الاستشراق، حافا لزروس يافا، سبقهما إليه باعتراف زاوى كل من جولدزيهر وكاتش، ورده آخرون مثل جوستاف لوبون^(٢٢) وريتشارد بل^(٢٣) وجورج سيل وكاسميرسكى وجايجر، بل هناك كتب كاملة تحمل عناوين تفيد ما ذهب إليه المستشرقون الإسرائيليون ومن ذلك على سبيل المثال:^(٢٤)

أسماء الله الحسنى ومصادرها الشرقية في القرآن، السير ادوين أرنولد، ١٨٣٥ .

السامريون في القرآن، جوزيف هاليفى، ١٩٠٨ .

عيسى في القرآن، جروهمان، ١٩١٤ .

٢٢ - انظر: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، د. ت، ص: ١٢٠ .

٢٣ - د. محمد حمدي زقزوق، المرجع السابق، ص: ١٠٢ .

٢٤ - محمد عبد الله الشرقاوى، الاستشراق والغارة على الفكر الإسلامى، دار الهداية، القاهرة، ١٩٩١، ص: ٣٤ - ٣٥ .

راهب بحيرا والقرآن، كرايفو، ١٨٩٨ .

القرآن، الإنجيل المحدث، سترستين، ١٩١٨ .

الإسرائيليات في القرآن، يوشع فنكل، ١٩٣٢ .

عناصر نصرانية في القرآن، أرينز، ١٩٣٥ .

القصص الكتابي في القرآن، شبائر، ١٩٣٩ .

النصرانية واليهودية في القرآن، بومشتارك، ١٩٥٣ .

ونفس هذه المفاهيم ردها المستشرق الانجليزي "جب" في كتابه "المذهب المحدث"، "وبلاشير" في كتابه "معضلة محمد" وغيرها^(٣٥).

وقبل أن يولد كل هؤلاء، أشار القرآن الكريم على نحو ما بينا أنفاً إلى ما رده المشركون واليهود منذ ظهور الإسلام.

فالمستشرقون - الإسرائيليون وغير الإسرائيليين - إذن، يفتقدون الأصالة في مزاعمهم هذه، ويردد كل منهم ما ذهب إليه الأسلاف، حتى ينتهي بنا الأمر إلى هؤلاء الذين عاصروا نزول القرآن ويعتة الرسول ﷺ .

أما ردنا على هذه الفرية - وقد سبقنا كثيرون في الرد عليها - فنوجزه فيما يلي:

إن تلك المزاعم الاستشراقية هي نتيجة حتمية للمنهج التاريخي ولمنهج التأثير والتأثر، وهما من المناهج العقيمة في دراسة الإسلام، وأشرنا إلى ذلك عند الحديث عن مناهج المستشرقين، ومرد هذه الشبهة يكمن في وجوه الشبه الواردة لبعض القضايا التي عالجها القرآن، ولها صدى في الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، وهذا التشابه لا يرجع للاقتباس أو التأثر وإنما يرجع

٣٥ - التهامي نقرة، "القرآن والمستشرقون" في: مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، المرجع السابق، ص ٢٧ : ٣١ .

إلى وحدة المصدر الذي جاء منه القرآن، والكتاب المقدس قبل تحريفه.

نضيف إلى ذلك أن الواقع القرآني فيما يتعلق بأصول الإيمان وبالتشريع وبالقصص وغيره، يختلف عما هو عليه في التوراة والإنجيل. ونظرة واحدة لصورة الإله في القرآن وصورته في العهد القديم، أو لما يراه النصارى في "الرب" كفيلة بهدم الزعم بتأثر محمد بكتب اليهود والنصارى. حتى فيما يتعلق بالقصص، وهو الجانب الأوضح للتشابه، شتان بين ما يرد في القرآن بشأن الأنبياء وما يرد في العهد القديم مثلاً: فالقرآن لا يقر زنا لوط مع ابنتيه، ولا ما وصل إليه داود من أخلاقيات لا يمكن أن يتصف بها تقى من عامة الناس.

ثم أين قصص عاد وثمود في القصص اليهودي والنصراني؟!.

وفيما يتعلق بالتشريع، فليس في أناجيل النصارى شيء مما في تشريعات القرآن، وما عند اليهود يختلف كثيراً عما في القرآن.

فأول سمة للتشريع القرآني أنه للناس كافة؛ بينما تحدد أسفار التوراة تشريعاتها وتخص بني إسرائيل بها، فعندما يحرم القرآن السرقة والزنا والربا، لا يفرق بين المسلم وغير المسلم، بينما تحرم التوراة الربا بين اليهود، وتجعله حلالاً طيباً مع غير اليهود، وقس على هذا الكثير من الأمور التشريعية.

وكثير من تشريعات اليهود كانت معروفة بين الأمم والشعوب قبل نزول التوراة، فلماذا لا يذهبون إلى أن تشريعاتهم منقولة عن تلك الأمم والشعوب، على نحو مانجد مثلاً في قوانين حمورابي وغيرها؟!.

وقد فند مالك بن نبي فرية التأثير اليهودي - النصراني على البيئة المحمدية بوجه عام بما تشير إليه بعض آيات القرآن الكريم من خلو البيئة العربية من أي تاريخ توحيدى يتصل بالأديان المنزلة لا بفكرة الألوهية، وكذلك بالمحاولة

الفاشلة التي قام بها آباء يسوعيون في مطلع هذا القرن لتحديد مساهمة شعراء النصرانية في الجاهلية، بالإضافة إلى عدم وجود أى مركز ثقافي ديني في مكة يتولى نشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن، كما أنه ليس لدينا دليل على وجود ترجمة عربية لهذا الكتاب قبل الإسلام.

أما فرية "التعليم الشخصى" لمحمد عليه الصلاة والسلام، فإن عملية الاسترداد تتطلب الذاكرة الضعيفة، أى: النسيان، ولم يسجل عن النبى شئ كهذا، بل على العكس، كان الحافظ الأول لسور القرآن التي كان يتلقاها مباشرة من جبريل، كما أن المصادر العربية للتعليم لم تكن موجودة إطلاقاً^(٣٦).

ولو افترضنا - حسب زعم هؤلاء المستشرقين أن محمداً ﷺ قد التقى بالراهب بحيرا المزعوم في رحلته للشام، فهل استطاع في لقاء أو لقاءين أن يأخذ عنه كل هذا القرآن؟

وماذا بشأن ما نزل من القرآن والقضايا التي أثارها الكفار والمشركون واليهود بعد وفاة ورقة، وعدم لقاء محمد ﷺ - بالراهب؟!

هل كان يعلم ورقة وبحيرا بما سيسأل فيه محمد ﷺ حتى يلقنوه الإجابة سلفاً؟!

وهل كان ذلك الراهب النسطورى الأعجمى يتكلم العربية حتى يناقش باستفاضة كل هذه القضايا مع الرسول، أم هل كان الرسول يجيد لغة بحيرا إجادة تمكنه من الجدل والمناقشة، ولم يؤثر عنه ﷺ أنه كان يعرف الآرامية أو السريانية أو العبرية، بل لم يوجه هؤلاء المستشرقون - ضمن اتهاماتهم - هذا

٣٦ - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: ٢٤٤، نقلًا عن: عمر لطفى العالم، المستشرقون والقرآن. المرجع السابق، ص: ١٠٢ - ١٠٣.

الاتهام، بإلزام محمد ﷺ - باللغات الأخرى ١٩

ونستخلص مما سبق ما يلي:

أولاً: إن آراء المستشرقين العبريين ليست سوى تكرار غير حصيف
لمفتريات تفتقر إلى الدليل والبرهان على صحتها.

ثانياً: أن هذه الآراء في حد ذاتها واهنة وهن بيوت العنكبوت أو أشد.

ولا تأتي المستشركة الإسرائيلية حافاً لزروس بجديد عندما تتحدث عن
السنة الشريفة، فهي تقلد - بسذاجة - إخوانها اليهود في الاستشراق، ولننظر
فيما تقول عن السنة:

"لدينا القليل جداً من الوثائق التي بإمكانها مساعدتنا في معرفة سيرة
محمد بصورة تاريخية، فالقرآن ليس كتاباً تاريخياً... وفي أيدينا كتب عديدة
للسيرة ولكنها ناقصة لأنها كتبت بعد النبي بزمان طويل.... وأقدم كتب السيرة
هو لابن اسحق، وضعه ابن هشام، وتم إعداده بعد وفاة النبي بمائتي عام
تقريباً، ولذلك لا يمكن لها أن تكون صادقة لكنها مزينة بكثير من الأساطير
والزيادات، ونفس الوضع ينطبق على الحديث في الإسلام،^(٣٧)

وتضيف نفس المستشركة في مواضع أخرى:

"في الواقع، عرف الكثير من علماء الإسلام في العصور الوسطى - ونعرف
نحن الباحثون في العصر الحديث - أن كثيراً جداً من الأقوال (وهناك من
يعتقد أن كل الأقوال) التي تعرض على أنها من قول النبي محمد وصحابته،
ليست إلا أقوالاً موضوعة في فترة متأخرة جداً"^(٣٨)

٣٧ - الإسلام: خطوط عريضة، المصدر السابق، ص: ١٨ .

٣٨ - المصدر السابق، ص: ٤٤

"ويقول أحد كبار الباحثين في الإسلام وهو . جولدزيهر: إن السنة النبوية في الإسلام لا تمثل آراء وأفعال النبي محمد، بقدر ما تمثل تطور الإسلام الناشئ في خلال المائتين وخمسين سنة الأولى من قيامه"^(٣٩)

"ففي الواقع، وضع كل إنسان على لسان النبي أو لسان أصحابه الأقوال التي كانت ضرورية له أو يراها طيبة في عينيه"^(٤٠)

والمقتطفات السابقة من آراء المستشرقة الإسرائيلية المذكورة تشير إلى مايلي:

- ١- التشكيك في السنة، مصدرها، وعصرها.
- ٢- ترديد الآراء السابقة.
- ٣- استخدام المنهج الإسقاطي.
- ٤- الخروج عن المنهج العلمي في تحقيق الآراء وإثبات الأدلة.

فالتشكيك الإسرائيلي في السنّة ليس جديداً في عالم الاستشراق، فقد سبق المستشرقون هذه الباحثة وزعموا نفس الزعم، وما رأى جولدزيهر أو شاخت بيعيد.

فقد ذهب الأول إلى أن الأحاديث النبوية قد جاءت نتيجة للتطور الديني والسياسي في القرنين الأول والثاني^(٤١).

وزعم الثاني أن علماء المسلمين كافة في القرون الثلاثة الأولى كانوا كذابين وملفّقين غير أمناء، وأن الأحكام الفقهية لا ترجع إلى أصول دينية، وإنما

٣٩ - المصدر السابق، ص: ٤٥ .

٤٠ - المصدر السابق، ص: ٤٦ .

٤١ - ساسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية، المرجع السابق ص: ٤٩٨ .

ترجع إلى أحاديث مكنوبة اختلقها الفقهاء أنفسهم واخترعوا لها الأسانيد.^(٤٢) لقد حاولت المستشرقة الإسرائيلية "إسقاط" ما يوجه لمعتقداتها وديانتها من اتهامات. فالتشكيك في نصوص جميع أسفار العهد القديم أمر لا مفر منه، بل إن لغة هذه النصوص محل شك كبير. فليس لدينا دليل على أن موسى عليه السلام - الذي تلقى هذا الكم الكبير من الأسفار حسب زعمهم - كان يعرف العبرية.

والأساطير والزيادات هي جزء لا يتجزأ من الشرائع اليهودية، وإلا فلتبين لنا موقع الأجاثوت (الأساطير) من ديانتها.

أما الزعم بأن السيرة النبوية قد كتبت بعد النبي بزمان طويل يصل إلى مائتي عام فهو أمر مثير للدهشة والعجب، إذا كان مجرد قرنين من الزمان سبباً في التشكيك في السيرة، فماذا نقول عن أسفار العهد القديم وعن التلمود، وقد تم تسجيلها وكتابتها بعد عشرات القرون؟!.

لو رجعت المستشرقة الإسرائيلية إلى أبسط كتب الحديث^(٤٣) لعلمت متى تم تدوين الحديث، وكيف تم تدوينه، وكيف وضع العلماء المسلمون مقاييس ومعايير^(٤٤) لم تقتصر فقط على السند على نحو ما ذهب في كتابها^(٤٥) - لو طبق علماء اليهود هذه المعايير الدقيقة على تراثهم الديني الممثل في العهد

٤٢ - مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥، ج ١، ص ٦٣ وما بعدها.

٤٣ - انظر على سبيل المثال: صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٣، ١٩٨١: محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحدث النبوي وتاريخ تدوينه، جامعة الرياض، ١٣٩٦ هـ.

٤٤ - انظر مثلاً: المقدسي، أبو الفضل محمد بن طاهر، شروط الأئمة الستة، علق عليها محمد زاهد الكوثري، مكتبة عاطف، القاهرة، د. ت.

٤٥ - الإسلام: خطوط عريضة، المصدر السابق، ص: ٤٧.

القديم والتلمود، ما وجدنا إصحاحاً كاملاً يمكن توثيقه.

وليس المقام هنا لبيان إفك وتضليل حافا لزروس وإخوانها في الاستشراق. فقد أفاض الآخرون في ذلك ولا نريد التكرار وإنما استشهدت بعباراتها لبيان عدم أصالتها، ولاعتمادها على ما سبق ترديده، بالإضافة إلى ماميز منهج هذه المستشرقة من سمات أخرى أشرت إليها كذلك.

ثانياً: مناهج البحث

أول ما يلاحظ في الكتابات الاستشرافية العبرية هو افتقارها إلى الموضوعية التي ينبغي أن تتسم بها الأبحاث والدراسات الجادة.

فثمة آراء تطرح دون أدلة تقوى منها وتساندها، وإنما هي مجرد احتمالات واهية. تقول حافا لزروس يافا:

"ويبدو أنه في عصر محمد قام من بين العرب أناس معدودون أطلقوا عليهم (الحنفاء) طالبوا بإعلاء شأن الإيمان عند العرب في شبه الجزيرة العربية شمالاً بدرجة عالية تلائم مستواهم الحضاري في مجال الشعور مثلاً. لقد بحثوا عن إيمان بإله واحد، ولم يكتفوا بعبادة الأحجار والجن والأرواح، ومن الممكن أن يكون محمد في بداية أمره مجرد واحد من هذه المجموعة التي عمل كل واحد منهم على انفراد. ويبدو أن بعضهم قد تنصر، والبعض الآخر قد انضم إلى محمد في وقت لاحق، ويبدو كذلك أن قريب زوج محمد - خديجة - كان معلمه في هذا الشأن"^(٤٦).

عبارة كتلك، تحفل بكلمات ترجيحية مثل "يبدو" و "من الممكن" تشير بلا شك إلى إفلاس صاحبها العلمي، كما تشير إلى البعد التام عن الموضوعية

التي تتسم بها العلوم . فالحقائق الثابتة لا تعرف "يبدو" ولا "من الممكن" وإنما هي تؤكد واقعاً أو تنفيه استناداً إلى الشواهد والأدلة لا إلى الهوى.

أما الزعم بوجود مجموعة من أمثال محمد - ﷺ - فهو إدعاء باطل يكذبه الواقع الذي سطرته كتب السيرة، كما أنه لو وجدت مثل هذه المجموعة ما خفيت أسماء أصحابها ولا أوصافهم ولا سيرهم، فمعظم الذين آمنوا بمحمد في بداية دعوته - إن لم يكن جميعهم - كانوا من المشركين الذين ناصبوه العدا، ثم لانت قلوبهم وتفتحت عقولهم واعترفوا بالحق، لقد كان مشركو قريش أكثر موضوعية وعقلانية من مستشرقى اليوم، لأنهم عرفوا الحق فاتبعوه.

وتقول أفيفا شوسمان:

"ويجمع الباحثون على أنه كان لمحمد معلمون ومرشدون، وإن لم يكن له اتصال مباشر بالكتب المقدسة الخاصة باليهود أو النصارى، ويبدو أنه سمع تفاسير التوراة في المعابد أو حضر مناقشات مع اليهود والنصارى ومن خلال ذلك تراءت إلى سمعه الأخبار التي وجدناها فيما بعد في القرآن" (٤٧)

والفقرة السابقة تشير إلى خلل منهجى صارخ، يتمثل في الزعم بأن الباحثين قد أجمعوا على أنه كان لمحمد معلمون ومرشدون، دون أن تذكر لنا باحثاً واحداً من هؤلاء، ولا مرجعاً واحداً اعتمدت عليه، ناهيك عن صعوبة إثبات "الإجماع" في هذا المقام، لأن هناك من سيخرج على هذا الإجماع ممن يختلف مع هذا الفريق الاستشراقى في رأيه. إن أول خطوات البحث العلمى التى يتعلمها الطالب الجامعى هو أن يبعد عن التعميمات من ناحية، وأن يوثق

٤٧ - أفيفا شوسمان، "بشارة الإسلام" في : الإسلام خطوط عريضة، المصدر السابق،

رأيه بالمصادر والمراجع الموثوق فيها من ناحية أخرى، لكننا على نحو ما نلاحظ في الفقرة السابقة نجد ما يخالف ذلك تماماً.

ثم أين كانت معابد اليهود في مكة المكرمة في زمن النبي ﷺ؟، بل إن يهود المدينة ما زالوا حتى الآن يكتنفهم الغموض، وهناك اختلافات كبيرة حول النصوص المقدسة التي كانوا يتعبدون بها. هل كانت عربية أم عبرية؟!، وهل هي ذات النصوص الموجودة بين أيدينا الآن، أم أنها نسخة مختلفة تماماً كغيرها من النسخ التي وجدت هنا وهناك.

وقد وقعت هذه الباحثة كذلك في شراك "ييلو"، وهي كلمة تعكس ضعف المنهج العلمي - إن كان هناك منهج في الأصل - لصاحبه.

وتقول حافا لزرورس يافا في موضع آخر:

"ويمكن أن نقول - **بالتأكيد** - إن يهود شبه الجزيرة كانوا يهوداً مبدعين عشية ظهور الإسلام، **ويبغى أن نسلم** بأنهم قد أثروا على العالم الروحي لحمد" (٤٨)

ويحق لنا، ونحن أمام عبارة لمستشرقة متخصصة في إحدى الجامعات الإسرائيلية أن نتساءل:

ما هي الشواهد التاريخية الدالة على "إبداع" يهود شبه الجزيرة؟

قد نسمع عن إبداعات فلسفية ودينية ولغوية يهودية، إبان وجود اليهود في ظروف صعبة في بابل، أو في ظروف طيبة وسهلة في الأندلس إبان الحكم الإسلامي فيها، وإبداعاتهم هذه بين أيدينا، ولكن أتحدى هذه الباحثة أن تقدم لنا دليلاً مادياً واحداً على إبداع يهود شبه الجزيرة، الذي ترى أنه كان

موجوداً عشية ظهور الإسلام و "بالتأكيد".

ولا أرى منهجاً علمياً يقوم على الافتراضات المفتقرة إلى الأدلة، ويحاول في نفس الوقت "إكراه" الآخرين على قبول هذه الافتراضات الواهية، إلا في مثل هذه الكتابات العبرية.

فهل من الموضوعية أن نجبر الآخرين على التسليم (ينبغي أن نسلم) بأمر يفتقر في جوهره إلى عوامل التصديق؟!

أما في كتابها الثاني عن الإسلام - فتقول حافا لزروس يافا:

"ولقد انزوى الفلاسفة - مثلاً - والعلماء في الركن داخل الإسلام على يدي رجال الدين الذين طاردوهم، رجال الدين الذين شكلوا الخط المركزي في الإسلام، والذين رأوا في الفكر والفلسفة والعلوم خطراً أمام وجهة النظر الدينية"^(٤٩)

وملاحظاتنا على العبارة السابقة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لا يعرف الإسلام مصطلح "رجل الدين"، فهو مصطلح غريب عنه، أطلقه النصارى على قساوستهم ورجالهم، ولم أجد له استخداماً أو ذكراً في نص قرآني، أو حديث نبوي، أو حتى قول صحابي.

ثانياً: أن المطاردات التي قام بها "رجال الدين" للعلماء كانت من نصيب المجتمع النصراني في أوروبا، ونعرف العديد من الأخبار التي تقص علينا "إعدام" من قال بهذا الرأي العلمي أو ذلك.

ثالثاً: أن المسلمين الأوائل كان من بينهم الفقيه واللغوي والأديب والعالم في

نفس الوقت، ولم يفرقوا إطلاقاً بين مجالات العلم والفكر وفق "التخصص" الذي عرفته الشعوب فيما بعد.

والإمام أبو حامد الغزالي، الذي تخصصت فيه هذه المستشرقة، وكتبت عنه كثيراً، ودرست - أو هكذا كان من المفروض - مؤلفاته، ألم يكن له باع في قضايا الدين والفلسفة وغيرها، وقد أشارت هي بنفسها إلى أن مؤلفاته المتنوعة تربو على الخمسمائة؟

والإمام الحافظ العراقي - مثلاً - ألم يكن عالماً في الحديث، وله كذلك مؤلفات في الفن بديعة؟!

والإمام الشافعي، ألم يترك لنا كنوزاً من الفقه، ودرراً من الشعر؟! وغير هؤلاء كثير.

رابعاً: لم تقدم الباحثة دليلاً واحداً على حالات الاضطهاد التي تعرض لها العلماء، وهذه أيضاً سقطة منهجية.

ولم تلبث المستشرقة الإسرائيلية إلا وناقضت ما تقول، ففي الصفحة السابقة لهذه العبارة نراها تقول:

"فليس هناك تعارض بين الحضارة الإسلامية والعالم الأوربي كما أن الحضارة الإسلامية ليست مختلفة أو بعيدة عنه... فالعالم الأوربي يبني نفسه على ميراث الإسلام بالذات"^(٥٠)

كيف يمكن لنا أن نعقل ما سبق؟!

فتحت راية الإسلام - في العبارة الأولى - انزوى العلماء والفلاسفة.

وتحت راية الإسلام - في العبارة الثانية - بنى العالم الأوربي نفسه.

وحين نقرر هنا جحود الكاتبة وانحرافها العلمي، نحيلها إلى العديد من كتب المستشرقين التي شهدت بدور العرب 'الغلطاء' في نشر الحرية الفكرية، في العالم المقهور، تحت راية الإسلام^(٥١)

وثمة سقطة منهجية أخرى، لا تغتفر، نجدها في الدراسات الاستشراقية الإسرائيلية، تتعلق بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها هذه الدراسات، فمن الموضوعية التي تتسم بها المناهج العلمية الحقيقية أن أعتمد على مصادر موثوقة وأصيلة عند معالجة قضية من القضايا. فكما لا يجوز أن اتحدث عن التوراة اعتماداً على ما يقوله المسلمون دون الرجوع إلى التوراة نفسها فلا ينبغي أن يدرس عالم وباحث نزيه الإسلام دون الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأصلية.

لكننا نجد حافاً لزروس يافا في كتابها الأول عن الإسلام تعتمد على آراء مستشرقين يهود من أمثال جولدزيهر بهدف التشكيك في السنة النبوية المطهرة^(٥٢).

٥١ - انظر مثلاً... كتاب المستشرق الألمانية زيفريد هونكة، شمس العرب تسطع على العرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٥، ١٩٨١؛ على عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافريا، ط ١، ١٩٩٤؛ خوليان بيررا، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، د. ت؛ ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في أسبانيا، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، ط ١، ١٩٨٣.

وانظر كذلك مجموعة الأبحاث التي نشرها مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) تحت عنوان: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، ونشرتها الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة - عام ١٩٨٧، وضمنت أبحاثاً قيمة في مجال الأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والمعارف الملاحية والطب والموسيقى.

وعندما أراد زاوى دراسة حياة النبي ﷺ لم يرجع إلى سيرة ابن هشام مثلاً أو غيرها من كتب السيرة الموثقة وإنما نقل عن هنرى ليمنس، ومرجعه في ذلك كتابه المترجم إلى العبرية عن الإسلام^(٥٣).

وعن موقف النبي ﷺ من التوراة نراه يستشهد بعبرى آخر في بحث له عن الإسلام وهو د. برونشويج^(٥٤).

وفي مناقشته لأركان الإيمان، يستشهد بما كتبه اليهودى أبراهام كاتش عن الإسلام^(٥٥).

وعندما يتحدث عما يدين به الإسلام لليهودية، يرجع كذلك إلى كتابات المستشرق اليهودى الفرنسى جيل ايزاك^(٥٦).

بل إن قائمة مراجعه ومصادره كلها لا تشتمل على مرجع عربى إسلامى واحد، وإنما هى عبرية (ستة عشر مرجعاً تقريباً) وأجنبية (أربعون تقريباً)، الأمر الذى يؤكد لنا أنه في تفسيره للقرآن الكريم، لم يطلع على أى تفسير عربى، بل لعله لا يعرف العربية على الإطلاق.

وذكر الحقائق أو المعلومات دون الإشارة إلى مصادرها هو أحد عيوب المناهج الاستشراقية العبرية. على سبيل المثال يقول ايتان كولبرج:

"ترتبط بداية الشيعة ارتباطاً وثيقاً بالأحداث التى وقعت حول وفاة النبي محمد (٦٣٢) ووفقاً لما يوصف في المصادر التاريخية مات محمد دون أن

٥٣ - الإسلام : خطوط عريضة، المصدر السابق، ص : ٤٥ .

٥٤ - مصادر يهودية في الإسلام، المصدر السابق، ص : ١٨ .

٥٥ - المصدر السابق، ص : ٣٦ .

٥٦ - المصدر السابق، ص : ٤٠ .

٥٧ - المصدر السابق، ص : ٢٥ .

يعين وريثاً^(٥٧).

فأى مصادر تاريخية استقى منها هذا المستشرق الإسرائيلي معلوماته؟! والأغرب من هذا كله، أن المستشرق السابق وهو يكتب عن الشيعة، لم يستخدم مرجعاً واحداً فارسياً أو عربياً، واعتمد في مراجعته كلها على ما كتبه المستشرقون الآخرون .

وإذا نظرنا إلى المراجع والمصادر التي اعتمد عليها مستشرق إسرائيلى آخر هو دافيد منشرى من خلال دراسة له عن الشيعة أيضاً وجدنا أن مراجعته التي تبلغ ثلاثة وأربعين تنقسم إلى:

- مراجع كتبها المستشرق نفسه بالعبرية والانجليزية (ملاحظات رقم ٨، ٩، ١٠، ١٣)

- مراجع كتبها عبريون آخرون مثل المستشرقة حافا لزروس (ملاحظة رقم ١)، اوريال هاد (ملاحظة رقم ٥).
- مراجع كتبت بلغات أجنبية.
- مرجعان اثنان فقط بالعربية.

والوضع السابق لا يمكن أن ينبى بموضوعية في البحث العلمى، فالأولى بمن يكتب عن الشيعة أن يرجع إلى مصادرهم الأصلية ليقف على حقيقة هذه الجماعة، وهذه سقطة منهجية خطيرة، يشترك فيها عدد كبير من المستشرقين الإسرائيليين.

كما نسوق نموذجاً آخر من كتابات حافا لزروس يافا وهى من أكثر الذين

٥٧ - ايتان كولبرج، "الشيعة: زمرة على"، احتجاج وثورة في الإسلام الشيعى، إعداد مارتن كرمز (بالعبرية)، تل أبيب، ١٩٨٥، ص: ١٢ .

كتبوا بالعبرية عن الإسلام، فمثلاً في قائمة مراجعها لكتابتها "أحاديث أخرى عن الإسلام" ونجد مراجع ومصادر عبرية وانجليزية وألمانية دون أن يكون من بينها مرجع واحد عربى وهى تكتب عن دين لغته العربية، بالإضافة إلى أن معظم هذه المراجع قد وضعها إخوانها من اليهود مثل برنارد لويس وجولديهر وغيرهما.

ويلاحظ أن الكتاب الوحيد الذى ألفه مسلم، وهو كتاب المنقذ من الضلال للغزالي قد اعتمدت المستشرق على ترجمته العبرية، لا على أصله العربى.

ولدينا مثال صارخ يشهد بعدم الموضوعية التى اتسم بها فريق كبير - إن لم يكن الجميع - من المستشرقين العبريين.

ففى مقدمته لترجمة معانى القرآن إلى العبرية، وهى الترجمة الثانية، وقد تمت فى القرن التاسع عشر يقول صاحبها المستشرق الألمانى اليهودى زالمان ريكندورف أستاذ الدراسات السامية فى جامعة هيدلبرج الألمانية مايلي:

"ويمكننى الآن أن اتوقف عن الكتابه وأطلب من الله العفو عن ذنبى الذى ارتكبته حيث دنست لغتنا المقدسة ونقلت إليها أحاديث الإفك والبهتان. هناك ثلاثة مبررات جعلتنى أقدم على ترجمة القرآن إلى العبرية وهى:

الأول: أن هذه اللغة أقدر من غيرها على نقل مضمون القرآن كلمة كلمة، فالعبرية هى أخت العربية التى كتب بها القرآن.

الثاني: أن العبرية مفهومة لكل حكماء شعبنا.

الثالث: وهو السبب الأساسى ويتمثل فى أنه حينما يقرأ المرء شرائع توراتنا المقدسة وشرائع القرآن، والقصص الجميلة والجمل البلاغية السامية الواردة فى قصص العهد القديم ويقارنها بالأباطيل الواردة فى القرآن، فسوف يدرك

ويميز بين ما هو مقدس وما هو غير ذلك، وبين ما هو طاهر وما هو دنس، وسترفع في عينيه مكانة إيماننا الطاهر، إذ إن قيمة الخير والحقيقة لا تدرك إلا من خلال معرفة الكذب^(٥٨).

هذه هي مقدمة مستشرق يهودي عبري، ترجم القرآن، فهل يمكن لذى عقل رشيد أن يتوقع من صاحب هذه الكلمات صدقاً وأمانة في الكلمة؟

وهل يمكن بعد تلك المقدمة أن يزعم المتشدقون والمسيحون بفضائل الاستشراق على الإسلام أن يروا في هذه الظاهرة الاستشراقية علماً موضوعياً؟!

ثالثاً: أخطاء الفهم والترجمة والتأويل

وقع المستشرقون الإسرائيليون - من خلال النماذج التي اطلعت عليها - في أخطاء فادحة في فهم وتأويل كثير من النصوص الإسلامية، وكذلك في ترجمة العديد من المصطلحات الإسلامية، وذلك نتيجة عدم الإلمام باللغة العربية من ناحية، وسيطرة الخلفية التراثية اليهودية على كتابات هؤلاء اليهود من ناحية ثانية، وتأثرهم بالتراث الاستشراقي الكلاسيكي من ناحية ثالثة.

ففي حديثه عن أركان الإسلام، لا يورد المستشرق زاوى هذه الأركان حسب ترتيبها عند المسلمين^(٥٩)، ولكن حسب ترتيبه هو، مما يخل بمكانة وأهمية كل منها في عقيدة المسلمين.

وعندما تحدث عن الزكاة، يرى أنها تشبه ما جاء في التثنية ١٥ / ٧ - ٨،

٥٨ - ريكندورف، العهد القديم والقرآن، (بالعبرية) ليبزج، ١٨٥٧ ص: ٧.

٥٩ - شالوم زاوى، المصدر السابق، ص: ٤٤ وما بعدها.

وهذا فهم خاطئ للزكاة في الإسلام، إذ إنه لا تشابه على الإطلاق بين الجانبين، فقد جاء في النص التوراتي ما يلي:

"إن كان فيك فقير أحد من إخوانك في أحد من أبوابك في أرضك التي يعطيك الرب إلهك فلا تقس قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير، بل افتح يدك له واقرضه مقدار ما يحتاج إليه".

والزكاة كما حددها القرآن وأقرتها السنة الشريفة محددة القيمة، وواجبة على مخرجيها وحق لمستحقيها الذين حددتهم النصوص.

فهي ليست قروضاً ترد فيما بعد.

وليس متة من الأغنياء للفقراء، وإنما كما سماها القرآن "حق" للفقراء في مال الأغنياء.

وعندما ذكر زاوي مستحقي الزكاة في القرآن^(٦٠)، جاء ذكره ناقصاً، إذ اكتفى بالبعض وترك البعض الآخر.

وفي حديثه عن الحج^(٦١) زعم شالوم زاوي أن إبراهيم - عليه السلام - قد أسس الكعبة، والحقيقة أن إبراهيم عليه السلام لم يؤسسها وإنما "رفع القواعد"^(٦٢) أي أكمل البناء على أساسه الموجود بالفعل^(٦٣).

ويزعم زاوي كذلك أن هناك صلاة خاصة في العيدين الكبيرين:

"في نهاية صوم رمضان، وصلاة اليوم العاشر (بالعربية عاشورا) من

٦٠ - المصدر السابق، ص: ٤٥.

٦١ - المصدر السابق.

٦٢ - سورة البقرة : ١٢٧.

٦٣ - حول تاريخ الكعبة ومن بناها انظر: حسين عبد الله باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، جدة، ط ٢، ١٨٢.

شهر ذى الحجة، حيث يتم تقديم قربان بمكة من قبل الحجاج، وهى الحالة الوحيدة التي يذبح فيها قربان في الشعائر الإسلامية^(٦٤)

والخطأ الأول في العبارة السابقة يتمثل في أن العاشر من ذى الحجة لا يسمى "عاشورا"، لأن عاشوراء تطلق على العاشر من شهر المحرم لا من ذى الحجة.

والخطأ الثانى يتمثل في أن مسألة الذبح هنا ليست هى الحالة الوحيدة في الشعائر الإسلامية وإنما هناك حالات أخرى يتم الذبح فيها مثلما يحدث عند الإخلال ببعض مناسك الحج، وارتكاب بعض المحظورات.

والخطأ الثالث يتمثل في أن هذا الذبح ليس قاصراً على الحجاج في مكة، بل هو سنة لغير الحجاج في جميع أرجاء المعمورة.

ونعود مرة أخرى إلى القرآن حيث تضع لنا حافا لزروس يافا تصورها وفهمها الخاطئ لترتيب سور القرآن - عن عمد - لكى تثبت ما تريد إثباته، ولو أنها إطلعت على فهرس القرآن وترتيب سوره ما قالت رأيها التالى:

"يرتب القرآن زمنياً ترتيباً عكسياً - فالسور القصيرة التى فى نهايته هى السور السابقة التى ترجع إلى فترة وجود محمد فى مكة، والطويلة التى فى بداية القرآن من عصر المدينة (الترتيب حسب الطول هو أمر شائع وموجود فى المشنا)^(٦٥) .

أما زاوى، فيرى أن ترتيب السور القرآنية يأتى حسب حجم كل سورة، ولم

٦٤ - مصادر يهودية فى القرآن، المصدر السابق، ص: ٤٥ .

٦٥ - أحاديث أخرى عن الإسلام، المصدر السابق، ص: ٢٦ .

يتم في عصر النبي ﷺ ، وإنما في نهاية القرن الثامن، أي بعد موت النبي بحوالي مائة وخمسين عاماً^(٦٦).

والحقيقة أنه لا علاقة زمنية فيما يتعلق بترتيب سور القرآن، كما أنه لا علاقة كمية بين طول السورة وموضعها في المصحف . فأول سورة في الترتيب - وهي سورة الفاتحة مكية، وليست بأطول سورة، والسورة الثانية هي أطول السور - وهي سورة البقرة - مدنية، كما أنه من بين السور المدنية ما تأخر عن المقدمة. فسورة الأحزاب، في الجزء الحادي والعشرين والثاني والعشرين، والحديد في السابع والعشرين والمجادلة في الثامن والعشرين والبيينة والزلزلة في الجزء الثلاثين، بل وسورة النصر كذلك، كلها سور مدنية لم توضع في المقدمة حسب فهم المستشرق الخاطي. وسورة العلق، وهي أول ما نزل من القرآن، وسورة النصر وهي آخر ما نزل، كلتاهما في جزء واحد، هو الجزء الثلاثين من القرآن الكريم.

وأما زعم زاوي بأن هذا الترتيب قد تم بعد وفاة النبي ﷺ بمائة وخمسين عاماً تقريباً، فهو زعم واهٍ، لم يقدم لنا دليلاً واحداً عليه، ويدحضه أن المسلمين منذ عصر النبي وحتى الآن مجمعون على هذا الترتيب، ولا نجد بينهم اختلافاً في ترتيب المصحف.

إن مفهوم الترتيب الزمني ينطبق على أسفار العهد القديم، فتكوين الكون وخلق الخلق، وتسلسل الأنبياء ثم الخروج من مصر فدخل فلسطين ثم حكم القضاة فالملوك ... هو ما يميز العهد القديم باعتباره كتاباً تاريخياً، جمع الروايات وسجلها بعد فترة من وقوعها.

ولا يمكننا أن نطبق هذه النظرة اليهودية البحتة على القرآن، لأن ترتيب

٦٦ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق، ص: ٢٠ .

القرآن الكريم أمر توقيفي من الرسول ﷺ وحسبما تلاه على جبريل في آخر لقاء له معه^(٦٧) أما ترتيب المشنا على حد زعم المستشرقة الإسرائيلية، أو حتى ترتيب العهد القديم، فهو مشروع شارك فيه العديد من أحبار اليهود وأنبيائهم، ولم يقدمه لنا موسى في الألواح، وإلا من رتب الأسفار التي جاءت بعد موسى عليه السلام؟!

وتبرز أخطاء الترجمة في تلك المحاولات التي قام بها المستشرقون الإسرائيليون لترجمة معاني القرآن الكريم، ونسوق فيما يلي بعض نماذجها. ترجم شالوم زاوي مصطلح "اللوح المحفوظ، إلى المصطلح العبري "هاشولحان هاشامور"^(٦٨)

ودلالة "هاشولحان" في معاجم اللغة العبرية هي:

المنضدة، المائدة، الطبلية، السفرة...^(٦٩)

قطعة من الأثاث تستخدم في وضع الأشياء عليها أو العمل عليها، لوح أو بساط يوضع على الأرض أو على أي شئ آخر بهدف الأكل.^(٧٠) طاولة.^(٧١)

وما يؤكد لنا عدم فهم زاوي للمصطلح القرآني، أنه قال عن القرآن "ووجد هذا الكتاب على هاشولحان هاشامور" ثم أشار إلى الآية الثانية والعشرين

٦٧ - انظر: محمود عبد الحليم الرفاعي، التبيان المبين في علوم كتاب الله رب العالمين، ملحق مجلة الأزهر- جمادى الآخرة ١٤١١ هـ، ص: ٢٠ - ٣١.

٦٨ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق، ص: ٢٠.

٦٩ - دافيد سجييف، قاموس عبري - عربي للغة العبرية المعاصرة، الجزء الرابع.

٧٠ - ابراهام ابن شوشان، القامون العبري المركز، القدس. ١٩٨١.

٧١ - Al-Calay, R., The Complete Hebrew English Dictionary. Massada Publishing Co. Jerusalem, 1975.

من سورة البروج "في لوح محفوظ"، ولو فهم حقاً هذه الآية ما استخدم الحرف "على" ولاستخدم حرف "الباء" فهو المقابل العبري لحرف الجر "فى"، ولكنه مادام قد فهم أن اللوح المحفوظ هو طاولة أو منضدة أو ما شابه ذلك، فالأصح أن يستخدم معه، "على" لا "فى".

واستخدام زاوى لمصطلح "هاشولحان هاشامور" فيه إحياء بوجود تأثير يهودى، سواء أفى اللفظ أم فى المحتوى، بهذا الكتاب الفقهى اليهودى المسمى بـ "شولحان عاروخ" والذى وضعه الحاخام يوسف كارو عام ١٥٦٥م وجمع فيه الفرائض والفتاوى اليهودية.

كما ترجم زاوى مفهوم الاستواء على العرش بكلمة «ياشاف» العبرية^(٧٢) ودلالة هذه الكلمة فى لغته تفيد الراحة والركون بكامل الجسد، كما تفيد المكث مؤقتاً أو دائماً^(٧٣)، وهى لا تؤدى معنى الاستواء الوارد فى حق الرحمن فى القرآن.

وفى ترجمة لكلمة "الكتاب" فى قوله تعالى: «يعلمهم الكتاب والحكمة» استخدم المصطلح العبرى "المقرا" لتؤدى معنى الكتاب^(٧٤)، وفى ذلك إحياء للقارئ العبرى بأن المقصود فى الآية هو تعليم "التوراة" إذ إن المقرا هو المصطلح الشائع بين اليهود لكتابهم المقدس.

ولترجمة عبارة "الحمد لله" استخدم زاوى مصطلح "هاتيهلاه لله"^(٧٥) بينما تؤدى كلمة "شيفخ" العبرية المعنى الأدق للحمد، ويبدو تعمده لاستخدام

٧٢ - مصادر يهودية فى القرآن، المصدر السابق، ص: ٢٦ .

٧٣ - ابراهيم بن شوشان، المصدر السابق،

٧٤ - مصادر يهودية فى القرآن، المصدر السابق، ص: ٤٥ .

٧٥ - المصدر السابق، ص: ٥٣ .

هذا التعبير ليوهم القارئ العبري بأنه مأخوذ عن مصطلح مشابه في المزامير.

كما يزعم أن كلمة "رب" العربية أصلها "ربون" التلمودية والتوراتية، ونسى أنها كلمة عربية قديمة، عرفها العرب قبل الإسلام، واستخدموها في أشعارهم وأمثالهم وأحاديثهم، وفي ذلك دراسات شافية ووافية^(٧٦) ويكفي الرجوع إلى معاجم العربية لفهم معنى الكلمة واستخداماته.

وفي ترجمته لقوله تعالى: ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ قال: ﴿الله راف هار حمايم﴾^(٧٧) والأصح أن يستخدم كلمة "حيسيد" العبرية محل رحمايم، لأن "رحمايم" قاصرة على الرحمة والشفقة والرأفة، بينما تعني "حيسيد" الفضل والمعروف والإحسان والمنة والإنعام بل وتشمل العطف والرحمة^(٧٨) وكلها معاني مقصودة من الآية الكريمة.

وقد اقتفى المستشرق الإسرائيلي زاوي خطى أخيه في الاستشراق ريفلين، في ترجمته للقرآن بالعبرية، حيث ترجم كلمة "إماماً" في قوله تعالى: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ بأنها "كوهين"^(٧٩)، وشتان بين وظيفة الإمام في الإسلام، والكاهن في اليهودية، فالكاهن ذو دور ديني شرعي بالدرجة الأولى، وهو من سبط معين من أسباط بني إسرائيل، أما الإمام في الإسلام فله دور أكبر من ذلك فهو إمام الصلوات، وهو الزعيم الروحي والسياسي، وهو القائد العسكري، وهو المعلم والمرشد والموجه، وحصر كل هذه المعاني في المصطلح اليهودي السابق ينطوي على جهل كبير بالمعنى - فلم يكن إبراهيم عليه السلام

٧٦ - انظر على سبيل المثال: أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، دار التراث العربي، القاهرة، د. ت، ص: ٢٥ وما بعدها.

٧٧ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق، ص: ٥٩.

٧٨ - دافيد سجيغ، المصدر السابق.

٧٩ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق، ص: ٥٩.

مجرد كاهن ولم يكن كذلك موسى أو عيسى أو محمد - صلوات الله تعالى عليهم أجمعين - مجرد دراويش أو كهان، يقبعون في المعابد والمحاريب والمساجد، يذبحون الذبائح ويتقبلون النذور والقرايين، ويقولون هذا لله وهذا لنا، لقد كانوا جميعاً قادة وزعماء ومرشدين ومعلمين وموجهين.

وربما كانت أنسب الكلمات العبرية لترجمة هذه الكلمة هي "مدرّخ" فمن معانيها: المرشد والمدرّب والدليل والقائد والمعلم والموجه والهادي إلى الطريق القويم^(٨٠)، بل لو استخدم الكلمة العربية ذاتها لعرفها القارئ العبري، فقد دخلت كلمة "إمام" إلى كثير من معاجم اللغات نتيجة تطورات سياسية معينة في المنطقة.

وفي موضع آخر يقول شالوم زاوى:

"قيل للنبي: اقرأ باسم ربك (سورة ٩٦/١)، واسم الفعل "قرأ" معناه أيضاً "لقرو"، ومنه جاءت كلمة قرآن وفي العبرية من اسم الفعل كذلك تستخدم كلمة "مقرا" التي تطلق على الكتاب المقدس^(٨١).

وهناك خلط في الترجمة وسوء فهم. فالكلمة العبرية، اقرأ "ليست باسم فعل كما يرى زاوى، وإنما هي فعل أمر، يطلب فيه الله تعالى من نبيه فعلاً معيناً هو القراءة.

وقد تعمد زاوى خلق تشابه - مبني على الخطأ والجهل بالالفة - بين تسمية القرآن وتسمية كتاب اليهود المقدس، ليوحى بأن القرآن لم يكتف بأخذ مضمونه من كتابهم المقدس، بل قد أخذ التسمية كذلك.

٨٠ - دافيد سجييف، المصدر السابق .

٨١ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق، ص: ٨٥ .

ومهما يكن من أمر، فمن المفروض أن يلم المترجم من لغة أجنبية إلى لغته، بأبسط قواعد اللغة، ولو اطلع زاوي على كتب تعليم العربية للأطفال، لعلم أن "اقرأ" فعل أمر.

ومن أخطائه كذلك استخدام الكلمة (هاسورات) ذات الحروف العبرية للدلالة على معنى "سورة" المفرد، "سور" الجمع، فقد استخدمها للمفرد في عدة مواضع^(٨٢)، واستخدمها أيضاً للجمع في عدة مواضع^(٨٣)، مع أنها في الأصل العربي غير ذلك تماماً، فهي "سورة" أو "سور"، واللفظ العبري المذكور لا يمثل المقابل العبري للكلمة العربية، مما يشير إلى جهل صاحبها بقراءة الكلمة العربية وكتابتها.

ومن أبشع أخطاء فهم وترجمة الألفاظ العربية، ما وقع فيه زاوي عند تسمية السور القرآنية، وهي نفس المسميات الواردة في ترجمة ريفلين لمعاني القرآن إلى العبرية^(٨٤) ونسوق هنا بعض مسميات زاوي:

فقد أطلق على سورة المائدة (هاشولحان هاموخان)^(٨٥) أى المائدة المعدة أو المجهزة.

وسورة النحل هي (هاتفورا)^(٨٦) مع أن هذه الكلمة العبرية تعنى النحلة الواحدة لا النحل.

سورة الشورى هي (هاموعاتسوت)^(٨٧)، وهذه الكلمة العبرية في صيغة

٨٢ - المصدر السابق، ص: ٢٦ ، ١٠٥ .

٨٣ - المصدر السابق، ص: ٢٤ ، ٣٤ .

٨٤ - انظر: يوسف ريفلين، القرآن (بالعبرية) تل أبيب، ١٩٨٧ .

٨٥ - شالوم زاوي، المصدر السابق، ص: ٨ .

٨٦ - المصدر السابق، ص: ١٢٣ .

٨٧ - المصدر السابق، ص: ٢٠٧ .

الجمع ومفردها يفيد التشاور للكيد، مكيدة، حيلة، نزوة، وذلك على نحو ما تشير لغة المستشرق في معاجمها، وكان الأخرى به - وفقاً للغة أيضاً - أن يترجمها بالاسم المشتق من الفعل (هتياعيتس)، أو بكلمة ياعتس "بمعنى إسداء مشورة، أو إعطاء نصيحة"^(٨٨)

وترجم سورة الواقعة باسم (هالاه)^(٨٩) وذلك باستخدام صيغه اسم الفاعل المفردة المؤنثة من الفعل (حال) بمعنى حلّ، وقع، بينما المقصود من "الواقعة" هنا يوم القيامة.

وسمى سورة الانشراح بالصيغة الاستفهامية الواردة في أول آياتها: ألم نشرح^(٩٠)؟!، مع أن تسميتها في القرآن واضحة، ولو نظر بنفسه إلى أسماء السور القرآنية لكفاه الأمر خطورة الانسياق وراء ترجمات الآخرين.

وترجم سورة فاطر بالكلمة العبرية "هملاخيم"^(٩١) أي الملائكة، مع أن هناك من المفردات العبرية ما يؤدي المعنى الصحيح نحو صيغه اسم الفاعل من الفعل العبري (برأ) بمعنى برأ، أي خلق أو فطر.

وسمى سورة الكوثر بسورة "الكثرة"^(٩٢) وإذا كانت الكثرة من معاني الكوثر، إلا أن المعنى الأرجح في ذلك هو نهر الكوثر، وقد ورد فيه حديث صحيح عن النبي ﷺ، وأثبت ذلك القرطبي في تفسيره^(٩٣).

٨٨ - دافيد سجيغ، المصدر السابق، ج ٢، مادة: ياعتس .

٨٩ - شالوم زاوي، المصدر السابق، ص: ٢١٩ .

٩٠ - المصدر السابق، ص: ٢٤٤ .

٩١ - المصدر السابق، ص: ٢٥٢ .

٩٢ - المصدر السابق، ص: ٦٣ .

٩٣ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط دار الريان للتراث، مصبورة عن كتاب الشعب، ج

١ / ٧٣٠٦ - ٧٣٠٧ .

وما سقناه نماذج "لكوثر" من الشواهد على الترجمة الخاطئة لأسماء السور القرآنية.

وفي ترجمته للآية رقم ٢٤٩ من سورة البقرة والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ نراه يترجم طالوت بشاؤل^(٩٤) وهو الشخصية المقابلة لطالوت في رواية العهد القديم لهذه القصة، ولم يلتزم بالاسم الوارد في الآية. ومن نماذج الترجمات الخاطئة التي ترمى إلى تضليل القارئ لها، ما ذهب إليه ريكوندورف^(٩٥) في ترجمته لكلمة سورة باللفظ العبري (حازون - رؤيا) المشتق من الفعل (حازا) بمعنى رأى، وأكثر استخدامات هذا الفعل، الواردة في العهد القديم ترتبط بالنبوة الكاذبة.

فقد جاء في سفر حزقيال وحده الشواهد التالية:

- | | |
|------------------------------------|----------------------------|
| "ألم تروا رؤيا باطلاً" ٧/١٣. | "رأوا باطلاً" ٦/١٣. |
| "الأنبياء الذين يرون الباطل" ٩/١٣. | "ورأيتم كذباً" ٨/١٣. |
| "رائين باطلاً" ٢٨/٢٢. | "إذ يرون لك باطلاً" ٤٣/٢١. |

فبعد تلك الاستخدامات التي تربط بين معاني الفعل العبري ومشتقاته وبين الكذب والبطلان، هل يمكن لنا إلا أن نتشكك في هذا اللفظ، وبخاصة أنه لا ينطبق في معناه الحرفي - لا الاعتقادي بالنسبة لصاحبه - على معنى السورة في القرآن؟!

رابعاً: أخطاء تاريخية

هناك أحداث تاريخية معينة، وقعت في تاريخ الإسلام منذ ظهوره، وبقيت

٩٤ - المصدر السابق، ص: ١٩٢.

٩٥ - ريكوندورف، المصدر السابق.

لنا أدلة قوية على ملابساتها، لكن المستشرقين العبريين لم يأخذوا بهذه الأدلة من ناحية، وفسروا هذه الأحداث وفق ما يرونه هم من ناحية أخرى. ولو كانوا قد عاصروا تلك الأحداث لقلنا إنه من حقهم أن يفسروا ما عايشوه، ولو كان لديهم أدلة أقوى لا عترفنا لهم بالموضوعية، ولكن أن يلجأ هؤلاء المستشرقون إلى تحريف التاريخ، اعتماداً على جهل بالمصادر، وجهل باللغة واندفاعاً وراء عاطفة مشبوهة، فهذا ما لا نقبله هنا، وما نرفضه بشدة، ووراء رفضنا هذا مبررات نعتقد بموضوعيتها وسنسوقها بإيجاز.

فمن أخطاء المستشرق حافا لزروس، قولها:

"كان العرب يعبدون الأحجار المقدسة المختلفة، وأشهرها الحجر الأسود الصغير في الكعبة بمكة"^(٩٦)

والعبارة السابقة تفيد مايلي:

- ١ - كان من بين آلهة ومعبدات العرب إله يسمى بالحجر الأسود.
- ٢ - إقرار النبي ﷺ ببقاء هذا الإله، بل والتبرك به، إذ لا زال حتى يومنا هذا بالكعبة، مع أن النبي ﷺ قد حطم سائر الأصنام التي كانت بالكعبة.
- والحقيقة أنني بحثت في المؤلفات التي تناولت حياة العرب قبل الإسلام وذكرت معبوداتهم وآلهتهم، فلم أجد الحجر الأسود من بينها.
- فقد أفرد ابن هشام فصلاً^(٩٧) ذكر فيه كل قبيلة ومعبداتها، ولم يذكر ضمنها الحجر الأسود.

وذكر الدكتور خليل نامى آلهة الأقباط التي عاشت في شبه الجزيرة:

٩٦ - الإسلام: خطوط عريضة، المصدر السابق، ص: ٩.

٩٧ - ابن هشام، المصدر السابق، ج ١، ص: ٧١ - ٧٢.

النبطية والثمودية والصفوية والحيانية واليمينية ولم أجد بينها الحجر الأسود^(٩٨).

وتحدث ديتلف تلسن عن الديانة العربية القديمة وذكر أسماء الآلهة والمعبودات العربية، ولم أجد بينها الحجر الأسود^(٩٩).

ولم أعثر على ذلك الحجر أيضاً في آلهة جورجى زيدان التى أوردها في كتابه عن العرب قبل الإسلام^(١٠٠).

والسؤال الذى أنتظر إجابة الباحثة عليه هو: من أين استقت معلوماتها عن هذا الحجر الأسود؟!

وهل نصدقها، أم نصدق تلك الأبحاث التى أشرت إليها لعرب وعجم؟!

ومن جملة أخطاء المستشرقة الإسرائيلية حافا لزروس هذه المقولة أيضاً:

"على الرغم من أن اليهود كالنصارى، كانوا يخضعون لكل سوء وأذلة في عالم الإسلام، فإن الطريق أمام التعاون الروحي كانت مفتوحة أمامهم، فاليهود والنصارى والسامريون وأبناء الطوائف الصغيرة الأخرى، ساهموا بدورهم في الحضارة الإسلامية العربية وتأثروا بها في نتاجهم إلى درجة كبيرة"^(١٠١).

٩٨ - خليل يحيى نامى، العرب قبل الإسلام، تاريخهم - لغاتهم - آلهتهم، دار المعارف، ١٩٨٦، ص: ١٣٣ - ١٥١.

٩٩ - ديتلف تلسن، التاريخ العربى القديم، ترجمة فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣، ص: ١٧٢ - ٢٤٢.

١٠٠ - جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، دار الهلال، د. ت. وحول هذه الفرية والرد عليها انظر: زكريا هاشم زكريا، المستشرقون والإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٥، ١٩٦٥، ص: ٢٢١ وما بعدها.

١٠١ - أحاديث أخرى عن الإسلام، المصدر السابق، ص: ٥٣.

ولبيان ما في الفقرة السابقة من خطأ نشير إلى مايلي:

إن مقدمة الفقرة والتي تذهب فيها الكاتبة إلى أن غير المسلمين كانوا يخضعون "لكل سوء" وأنهم كانوا "أذلة" تتعارض مع ما يليها من كلمات تقر فيها بمساهمة هذه الأقليات في الحضارة تحت راية الإسلام والمسلمين.

فلا يمكن لإنسان يتعرض لكل سوء، ويعيش ذليلاً أن يبدع ويساهم في وضع لبنة واحدة في أى صرح حضارى.

ونحن لا نكذب الكاتبة فيما قالت، وإنما هى نفسها تكذب نفسها حين تقول في موضع آخر:

"هيا نوجز القول بصورة عامة: مبدئياً، لا شك أن وضع اليهود في الشرق الإسلامى في معظم العصور كان طيباً للغاية إذا ما قورن بالغرب، وهذا - قبل كل شئ - لأسباب دينية، ولكن بالتأكيد، كانت هناك أسباب اجتماعية لذلك، حيث لم تكن معاملة الإسلام للأقليات على الإطلاق قاسية، مثل معاملة أوروبا النصرانية ليهودها"^(١٠٢).

فأى الرأيين نصدق وأيهما نكذب!؟

إنها ثمرة من ثمار التحريف العمد للحقائق والوقائع والتاريخ، وهى سمة واضحة في الكتابات العبرية التى نقوم بتحليلها.

ولم يكن شالوم زاوى بأفضل من أخته في الاستشراق. فعلى الرغم من بسط قضية يهود بنى قينقاع في كتب السيرة، إلا أنه أبى إلا أن يخالف التاريخ، كأنه كان شاهد عيان للأحداث يقول: زاوى:

"فيما يتعلق بسبب بنى قينقاع، فقد قتلوا تقريباً بسبب رفضهم للإسلام، وقد انقذوا بفضل عبد الله (الذي لم يؤمن) بالنبى، ولكن ممتلكاتهم صودرت، واضطر السبب إلى الهجرة"^(١٠٣).

ولقد تغاضى زاوى عن الحقائق المثبتة في المصادر من أجل تبرئة إخوانه من ناحية، والإساءة إلى محمد - ﷺ - والإسلام من ناحية أخرى.

فكتب التاريخ والسيرة^(١٠٤) تقص علينا خيانة يهود بنى قينقاع للعهد مع النبى ﷺ والمسلمين في المدينة في السنة الثانية للهجرة، بل وقتلهم لأحد المسلمين في سوقهم، وقد أجلاهم النبى ﷺ إلى أذرعات الشام، فهم لم يقتلوا بسبب رفضهم كما أخطأت المستشرق، وإنما تم إجلاؤهم بسبب خيانتهم للإسلام. وهناك فارق كبير بين رفض الإسلام وبين خيانتهم، وهناك فارق بالطبع أيضاً بين القتل وبين الإجلاء.

خامساً: الصهيونية في الاستشراق الإسرائيلي

إن كان للاستشراق اليهودى في المصادر العبرية من تجديد وإضافة يمكن لنا أن نعترف بها، فهى تلك الإضافة المتمثلة في تبني الفكرة الصهيونية والعمل على نشرها من خلال استقلال النصوص القرآنية بخاصة. في محاولة لإقناع المسلمين بهذه الفكرة على نحو ما سنبين من خلال تحليل الكتابات الاستشراقية العبرية.

فالالاتجاه العام في هذه الدراسات، والذي يقر بوجود "تشابه كبير" بين اليهودية والإسلام من ناحية، واعتراف الإسلام بالميراث اليهودي المتمثل، في

١٠٣ - مصادر يهودية في القرآن. المصدر السابق، ص: ١٧.

١٠٤ - انظر: تاريخ الطبرى ٢٠ / ٢٩٦، ابن هشام ٢ / ٥ - ٦.

التوراة من ناحية أخرى، وتأكيد هذه القضايا بصورة مستمرة من ناحية
ثالثة، ليس إلا تهينة للنفوس كي تتقبل النتيجة التالية:

مادام هناك تشابه، فلا بد أن يكون هناك اتفاق بين الديانتين وأتباعهما في
كثير من القضايا.

ومادام القرآن الكريم بنصوصه، يعترف ببني إسرائيل فلا بد للمسلمين أن
يقروا ذلك.

ومادام القرآن بخاصة، والإسلام بعامة قد استقى أسسه من الفكر
اليهودي، فلا مانع إذن من اتباع هذا الفكر حديثاً.

وإذا كانت كتابات المستشرقة الإسرائيلية حافاً لزروس قد مهدت لذلك، فإن
كتابات المستشرق شالوم زاوى قد أعلنت عن مكونات نفس صاحبها - وأمثاله
والتي تعكس تطلعات صهيونية لتحقيق أهداف محددة، من وراء مثل هذه
الدراسات.

وفيما يلي نجول في الكتابات الاستشراقية العبرية، لنرى ما تقدمه لنا من
جديد في عالم الفكر الاستشراقي.

يقول شالوم زاوى إن القرآن يعترف بالإله الواحد الأحد الذي يعرف كل
شيء، الذي اختار إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى والأنبياء، والذي اختار
ذريتهم كي يعطى لهم توراته ووعد بآرض إسرائيل^(١٠٥).

نعم يعترف القرآن بالإله الواحد الأحد، ويعترف باختيار إبراهيم وسائر
الأنبياء، بل ويعترف أيضاً بالتوراة ووعد الله لبني إسرائيل بالأرض المقدسة
واختياره لهم، إذ لا يعرف القرآن مصطلح "أرض إسرائيل"، ولكن، ألم يقرأ

زواى تكلمة الآيات التى تقر كل هذه الحقائق؟ ألم يشترط الله تعالى شروطاً لهذا الاختيار وهذا الوعد؟

قال تعالى: ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون، وأمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ الآية / ٤٠ - ٤٢ .

فشرط العهد الربانى هـ:

- ١ - الخوف من الله والتقوى . ٢ - الإيمان بالقرآن والإنجيل.
- ٣ - الإيمان بالتوراة. ٤ - عدم التفريط فى كتب الله بعرض الدنيا.
- ٥ - اتباع الحق، وهجر الباطل.

فهل أوفى بنو إسرائيل بهذه الشروط؟!

وشروط الوفاء بالعهد ليست شروطاً قرآنية وحسب، بل هى أيضاً شروط توراتية. فالعهد فى التوراة مشروط، ونصه كما يلى:

"فالآن، إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب، فإن لى كل الأرض، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة" الخروج ١٩ / ٥ - ٦ .

وفى رواية أخرى مفصلة للشروط الربانية نجد ما يلى:

"لا تصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالاً أو نصباً ولا تجعلوا فى أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له لأنى أنا الرب إلهكم. سبوتى تحفظون ومقدسى تهابون. أنا الرب . إذا سلكتم فى قرائضى وحفظتم وصاياى وعلمتم بها أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها... وأوفى ميثاقى معكم ... وأسير بينكم وأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لى شعباً، سفر اللاويين ٢٦ / ١ - ٩.

فإذا لم يقيم بنو إسرائيل بالوصايا والفرائض فلا عهد لهم عند الله ولا اختيار، وبقيّة الإصحاح السادس والعشرين من سفر اللاويين تؤكد ذلك.

وفي سفر التثنية يتم التأكيد على شروط العهد، فإذا قام الشعب بالوفاء بأركان العهد أوفى الله بما عليه تجاههم، والإصحاح السادس كله يؤكد على المطلوب تنفيذه من بنى إسرائيل.

وتفيدنا أسفار العهد القديم، أن بنى إسرائيل قد صنعوا التماثيل وعبدوها وأنهم لم يحفظوا السبت، ولم يسلكوا فرائض ربهم ولم يحفظوا وصاياه ولم يعملوا بها. أقول إن العهد القديم ذاته - لا القرآن - هو الذى يفيدنا بأن بنى إسرائيل قد خرقوا جميع شروط العهد، ومن ثم لا اختيار لهم ولا أرض.

فألرب - بلا شك - لا يخلف وعده:

"ومن أجل أنكم تسمعون هذه الأحكام وتحفظون وتعملونها، يحفظ لك الرب إلهك العهد والإحسان اللذين أقسم لأبائك". التثنية ٧ / ٢١ .

إذن القرآن الكريم يعترف بالعهد ويعترف بالاختيار المشروط، وتفصل لنا آياته كذلك خرق بنى إسرائيل للشروط الإلهية، وبالتالي لا عهد لهم عند الله، لا اختيار، ولا أرض.

فلماذا يؤمن المستشرق شالوم زاوى ببعض القرآن، ويكفر ببعضه الآخر؟! وفي محاولة لكسر حدة الموقف الإسلامي تجاه اليهود، يورد نفس المستشرق بعض الفقرات ذات الأهداف الصهيونية الواضحة فيقول:

"مطلوب إعادة تفسير القرآن ونقده تاريخياً من قبل المسلمين ليعرفوا ما يدينون به لليهودية ولبنى إسرائيل"^(١٠٦).

ويضيف أيضاً:

"الموقف القرآني تجاه اليهود خاص بيهود الجزيرة العربية، ولا ينطبق على غيرهم من اليهود"^(١٠٧).

فلتخفيف حدة الصراع الإسلامي - اليهودي الصهيوني، ينبغي على المسلمين أن يلقوا بتراثهم خلف ظهورهم ويعيدوا النظر في موقفهم تجاه "الشعب المختار"، الهادي للبشرية،

وفي أثناء ذلك، عليهم أن يعوا الحقيقة.. وهي أن هذا الموقف القرآني المعادي لليهود لا ينطبق على يهود روسيا وبولندا ورومانيا والفلاشا وأمريكا وغيرها، إنما هو موقف زمني مؤقت، كان خاصاً بيهود الجزيرة العربية، وحيث لا دليل على صلة نسب بين الصهاينة المعاصرين وبين هؤلاء اليهود، فلا ينسوخ على "إسرائيل" المعاصرة أي حكم من أحكام الإسلام.

وينزع زاوي ورقة أخرى من تلك الأوراق الشفافة التي كانت توارى سوءات الاستشراق العبري، حين يؤكد على أهدافه الاستشراقية الصهيونية ويقول:

"لا توجد آية في القرآن تقول بأن الأرض المقدسة للمسلمين، وإن كان هؤلاء قد احتلوها خلال مئات السنين كما فعل من قبلهم اليونان والرومان والبيزنطيون... والآيات تلزم المسلمين الاعتراف بالحقيقة التاريخية التي أكدها الوحي في التوراة والقرآن: الأرض لبنى إسرائيل"^(١٠٨).

والكاتب قد تباعد عن كثير من الآيات التي لا تتفق وزعمه. فالنبي موسى عليه السلام يدرك أن الله تعالى له مطلق الإرادة في منح الأرض لمن يشاء. فهي ليست حكراً على شعب دون آخر وإنما هي للمتقين من عباده:

١٠٧ - المصدر السابق.

١٠٨ - المصدر السابق، ص: ٢٧.

«قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين» الأعراف / ١٢٨ .

وهذا ما تؤكد آية أخرى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» الأنبياء / ١٠٥ .

فإعطاء الأرض لبني إسرائيل كان في هذا الإطار وضمن شروط الاتفاق والعهد بين الله وبين هؤلاء القوم، فلما أخلوا بالعهد، كان من المنطقي أن يحرموا من ثمرات العهد الرباني، وهذا ما تقره آية أخرى:

«قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين» المائدة / ٢٦ .

والقارئ لهذه الآية الكريمة سيجد علامة للوقف إما على (عليهم) أو على (سنة)، فإذا أخذنا بالوقف الأول، فإن هذه الأرض محرمة على بني إسرائيل إلى ما شاء الله، وتكون (أربعين) ظرف زمان للتيه، وهذا ما يفهم من قول الحسن وقتادة وتفسيرهما لهذه الآية، ويكون المعنى هو أن هذه الأرض محرمة على بني إسرائيل، وبالإضافة إلى ذلك يتيهون أربعين سنة عقاباً لهم.

وحتى يقنع القارئ بصدق المزاعم الصهيونية السابقة، يقول زاوي:

"ويعترف محمد في سورة إبراهيم، الآية ٤٧ بأن الله لا يبدل ولا يغير كلامه ولا رسالته، والتوراة كلام الله، فلا تغيير لها، ولا تلغى بالوحي الجديد" (١٠٩).

أما الآية التي يستشهد بها زاوي، فنصها هو: «فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام» إبراهيم / ٤٧

والمقصود منها ما بينه ابن كثير: "وعده بنصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد". ولا علاقة لها بما ذهب إليه المستشرق المذكور.

وهناك آيات أخرى ضل عنها الكاتب الإسرائيلي السابق، وكان يمكن أن يستشهد ببعضها، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ الكهف / ٢٧ .

وقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾ يونس / ٦٢ - ٦٣ .

وإذا كان الله لا يبدل كلماته، فإن عباد الله يحرفونها ويبدلونها، وهذا ما أقره القرآن الكريم بشأن اليهود.

فلماذا يقر زاوى بعدم تبديل الله لكلماته كما جاء في القرآن، ولا يعترف بتحريفهم «يحرفون الكلم عن مواضعه» النساء / ٤٦، وهذا وذاك قرآن واحد.

ويمزج زاوى الحديث عن المصادر اليهودية - كما يزعم - في الإسلام، وهو موضوع كتابه الرئيسى، بالتوجهات الصهيونية الكامنة في أعماقه فيقول:

"مما لا شك فيه أننا نشهد بصيصاً من النور يظهر في الأفق، فمن بين بعض المثقفين ورؤساء الحكومات الإسلامية وجدنا من يجزؤ على أن يعلن على الملأ حق شعب إسرائيل في أن يعيش في دولته ... فسلام العالم يستلزم تجميع مثل هؤلاء القوم حتى يتزايدوا تدريجياً بانضمام الساسة والعلماء إليهم حتى نصل إلى إقرار الواقع التاريخي المتمثل في عودة اليهود لوطنهم الواحد والوحيد، هؤلاء الذين يمثلون الشعب الأول والحى حتى اليوم، الذى اكتشف الإله الواحد للعالم كله.... فرغبة المؤمنين جميعاً أن تتحقق نبوءات

أنبياء المقرأ" (١١٠).

هنا يبدو سافراً الهدف اليهودي الصهيوني من مثل هذه الدراسات الاستشراقية العبرية: الإقرار بحق اليهود في العودة إلى فلسطين.

ولكن، ما علاقة مثل هذه الفقرة بموضوع دراسة هذا الباحث وهو المصادر اليهودية في القرآن؟

وهل حقاً كان اليهود أول من اكتشف الإله الواحد؟ وأين اكتشفوه؟ ومتى؟ أهو حقل بترول؟ أم منجم للذهب الذي يعشقونه؟ أم أنه مصدر لليورانيوم الذي يستغلونه في قنابلهم؟ وهل كان آدم مشركاً لا يعرف الإله الواحد؟

وماذا عن توحيد نوح وإبراهيم ولوط؟ أم أن هؤلاء كانوا يهوداً يؤمنون بالعهد القديم والتلمود قبل أن تتم كتابتهما، ويقرون بالاختيار الإلهي لشعب لم يولد بعد؟

إن الفقرة السابقة لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن نجد لها مكاناً في صفحات بحث علمي على الإطلاق. وربما تصلح لصحيفة معاريف أو لصحيفة أمريكية موالية للصهيونية. ولكن لبحث علمي منهجي موضوعي. فهذا أمر مشكوك فيه.

واستمراراً للنهج ذاته، والمتمثل في الزج بفقرات صهيونية بحتة في إطار الدراسة الاستشراقية العبرية، يقول زاوي:

"أرض إسرائيل الصغيرة الموعودة لذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب، والمعدة للشعب العبري وبعد ألف وتسعمائة عام في المنفى، قامت مرة أخرى وأصبحت وطناً لهذا الشعب الذي عانى أكثر من أي شعب آخر خلال تاريخه

الطويل، من الاضطهاد والمطاردات ومن معسكرات التجميع والموت" (١١١).

ولا نرى علاقة كذلك بين موضوع الدراسة، ومضمون هذا البيان الصهيوني، ثم ألا يعلم أن إسماعيل وذريته من نسل إبراهيم؟ فأين ميراثهم من جدهم وأبيهم، إذا سلمنا بنفس المنطق الصهيوني "الخرافي" العقيم؟ وفي إطار الهدف الصهيوني الرامي إلى إثبات الاعتراف القرآني بالدولة الإسرائيلية، يقول شالوم زاوى:

"هناك أهمية كبرى لأن يتصالح المؤمنون بالإسلام مع اليهود ودولة إسرائيل. إن الإسلام والقرآن يستمدان جذورهما من توراة موسى وتقاليده الآباء" (١١٢).

هذا هو المراد إذن ما دام الإسلام يقر نبوة موسى ويعترف بإسرائيل وحققها في فلسطين، فلم التخاصم لو كنا مؤمنين حقاً؟!

ويعود نفس المستشرق ليكرر هذه النغمة المملة لسامعيها فيقول:

"لقد جاء القرآن ليصدق توراة موسى، فهو يقبل كل توراة موسى بما فيها الوعد الإلهي لشعبه المختار دائماً، بأرض الآباء، الأرض المقدسة" (١١٣).

وهذا افتئات وإفك مبيت. فالقرآن جاء مصدقاً لتوراة موسى حقاً، ولكن القرآن نفسه هو الذى أخبرنا بأن هذه التوراة التى بين أيدي اليهود ليست هى ما أنزل على موسى تماماً وإنما أصابها التحريف والتبديل.

١١١ - المصدر السابق، ص: ٤٨ .

١١٢ - المصدر السابق، ص: ٤٩ .

١١٣ - المصدر السابق، ص: ٥٨ .

فكيف سوغ المستشرق الإسرائيلي "لمنهجه العلمى" أن يلوى عنق الحقائق الثابتة، والنصوص المقررة والمتاحة للجميع.

نحن نحيل كل من يقرأ كلام هذا الرجل إلى نصوص القرآن، وبخاصة تلك التى أشرنا إليها في ثنايا هذه الدراسة، ليدرك الجميع حقيقة الاستشراق بعامة، والإسرائيلي منه على وجه الخصوص، وأجد نفسى مضطراً للتساؤل:

إذا كان أمثال زاوى وحافا وغيرهما، يرون في الإسلام صورة تتطابق إلى حد كبير مع يهوديتهم، وأن محمداً لم يأت بجديد، وإنما تعلم على أيدي أحبارهم، وأخذ عن كتبهم، فلماذا لا يؤمنون به؟

وإذا كان محمداً كاذباً، ومدعياً. ولم يأت بجديد على نحو ما زعموا، فلم يجردون هذه الجيوش الجرارة من الباحثين، وهذه الإمكانيات الهائلة من وسائل النشر، لمحاربة محمد ودينه وأتباعه؟!

إن كتاباً كاملاً يحمل عنوان "الإسلام والسلام"^(١١٤) أصدره معهد أبحاث السلام في إسرائيل ليعكس بصدق الهدف الصهيونى من وراء الدراسات الاستشراقية.

ويضم هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث التى أعدها إسرائيليون متخصصون في الشؤون العربية والإسلامية، راحوا يربطون في أبحاثهم بين المفاهيم الإسلامية والموقف "العدائى" تجاه إسرائيل واليهود والصهيونية.

فهذه هذا الكتاب العام هو هدف سياسى بحث، يخدم المنهج الصهيونى في معرفة "العدو الإسلامى".

١١٤ - الإسلام والسلام (بالعبرية)، إعداد أبراهام فقه، معهد أبحاث السلام، جبعات حيبا، ١٩٩٢.

ومن الأهداف الصهيونية للاستشراق العبري محاولة شالوم زاوى إرجاع حدة الخلاف العقيدى بين اليهود وبين المسلمين إلى أسباب سياسية معاصرة^(١١٥)، إحياءاً بأن الحل السياسى للقضية الراهنة من شأنه أن يزيل، أو يخفف من حدة هذا الخلاف، مع أن الحدود الفاصلة بين الإسلام وبين اليهود قد بينها الله تعالى لنا في قرآنه منذ أربعة عشر قرناً، وقبل احتلال الأراضي العربية وقيام إسرائيل وظهور الصهيونية، وذلك حين قال جل شأنه:

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة الذين آمنو اليهود والذين أشركوا.... ﴾

المائدة / ٨٢.

ويقول زاوى في موضع آخر:

"حقاً، إن التشابه الثيولوجى بين القرآن وبين العهد القديم ليثبت أن هاتين الصورتين للإيمان الإبراهيمي بإله واحد، تضربان بجذورهما في نفس المصدر الدينى السامى الذى يستطيع بقوته كل من بنى إسرائيل وبنى إسماعيل أن يتوصلا إلى اتفاق بينهما من الناحية الروحية والاجتماعية"^(١١٦).

إنها دعوة صريحة "للتطبيع" الروحى والاجتماعى، يعلنها زاوى من خلال استشراقه العبرى، وهو هدف صهيونى إسرائيلى بحت، يبرز بوضوح بين سطور مثل هذه الكتابات.

الخاتمة

ساهم اليهود - كما قدمنا - في الحركة الاستشراقية الأوروبية الحديثة، وأدلوها بدلوهم فيها بوصفهم أوروبيين لا يهود، وقد أمدوا هذه الحركة بدفعة

١١٥ - مصادر يهودية في القرآن، ص ٣٨ .

١١٦ - مصادر يهودية في القرآن، المصدر السابق.

خاصة لما يتمتعون به من سمات لا تتوافر في غيرهم من المستشرقين.

كما ساهم اليهود الإسرائيليون - بعد قيام إسرائيل في فلسطين - في الدراسات التي خرجت من تلك المراكز الاستشرافية العبرية العديدة، التي أولتها إسرائيل اهتماماً خاصاً نظراً لطبيعة العلاقات الإسرائيلية - الإسلامية العربية.

وبعد أن اطلعنا على نماذج من هذه الدراسات وقمنا بتحليلها، امكنا الوقوف على الحقائق التالية:

أولاً: وحدة الهدف الاستشراقي، بين مستشرقى إسرائيل وسائر المستشرقين.

ثانياً: وحدة المنهج الاستشراقي كذلك عند هؤلاء وهؤلاء.

ثالثاً: التفاعل والتداخل بين الحركة الاستشرافية الإسرائيلية ونظيرتها في الغرب.

كما أمكنا تحديد ملامح الاستشراق الإسرائيلي بعد تحليل النماذج وتقديم الشواهد فيما يلي:

أولاً: يفتقر النتاج الاستشراقي العبري إلى الأصالة والإبداع، ويعمد إلى تكرار مقولات الاستشراق بوجه عام.

ثانياً: هناك خلل فيما يتعلق بمنهج البحث عند المستشرقين العبريين، تمثل في البعد عن الموضوعية حيث تعميم الأحكام واستنباطها دون دليل، واللجوء إلى الروايات الضعيفة للأحداث، وعدم استقاء المعلومات من مصادرها الأصلية، ناهيك عن عدم الالتزام بأسس البحث العلمي المتعارف عليها.

ثالثاً: حفلت الكتابات الاستشراقية العبرية بأخطاء في الفهم والترجمة والتأويل ويرجع هذا إلى عدة عوامل في نظرنا وهي:

أ - عدم الإلمام باللغة العربية.

ب - النقل عن مصادر غير إسلامية.

ج - الموروث الفكري اليهودي العدائي تجاه العرب والمسلمين.

د - عدم الدقة في معالجة النصوص أو في تحليلها.

رابعاً: حفل النتاج الاستشراقي العبري بالعديد من الأخطاء التاريخية الناتجة عن عدم فهم النصوص، وعن عدم الرجوع إلى المصادر الأصلية، كذلك خضعت مفاهيمهم فيما يتعلق بالأحداث التاريخية لمؤثرات غير موضوعية على الإطلاق.

خامساً: لوحظ في كثير من هذا النتاج توظيف الخطاب الاستشراقي لخدمة الفكرة الصهيونية، ومن ثم - وعلى نحو ما قدمنا من نماذج - جاءت كتاباتهم بمثابة "بيانات صهيونية"، تمت صياغتها بناءً على فهم خاطئ للنصوص القرآنية من ناحية، بالإضافة إلى بتر هذه النصوص. ولم يتورع هذا الصنف من المستشرقين عن الدعوة الصريحة "اصهينة" الفكر الإسلامي و "التطبيع" الروحي والاجتماعي بين المسلمين واليهود.

وهكذا نجد أن الحركة الاستشراقية الإسرائيلية، بما قدمته من أفكار وآراء، قد ساهمت في تعميق أزمة الفكر الاستشراقي بوجه عام، كما ساهمت أيضاً في إزدياد "تلوث مصطلح الاستشراق" على حد تعبير برنارد لويس.